الفصل الثالث
روافد الصورة الفنية بين الشاعرين

المبحث الأول، ثقافة العصر وعلومه وأثرهما فى الصورة الفنية:

توطئة:

الأدب نسيج معقد تسهم فى تكوينه أمشاج متشابكة، لا يكاد ينفصل بعضها عن البعض إلا فى الدراسة؛ إذ الأدب تعبير عن صاحبه، وصاحبه ليس هو الجسد المكون من اللحم والدم والعظم فقط؛ بل صاحبه هو عقل الأديب وذاكرته وما تراكم فيها من ذكريات وعلوم وصور، وما ترسب فى وجدانه من تجارب تظهر فى سلوكياته، مضافاً إلى ذلك كله عاطفة الأديب ومشاعره، وانفعالاته وردود أفعاله وخبراته الشعورية التى تكونت خلال سنى عمره المترَمية.

وتلك الخبرات وهذه الترسبات المتعددة الجهات هى أنواع المعارف التى نتعارف اليوم على تسميتها بالثقافة؛ فالأدب إنتاج ثقافة متعددة الروافد، حسب تفاعل المبدع مع مجتمعه، وأيضا حسب تفاعل مجتمعه هذا مع غيره من المجتمعات.

فـ"الثقافة سر من الأسرار الملثمة فى كل أمة من الأمم وفى كل جيل من البشر وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغور ،معارف كثيرة لا تحصى متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يحاط بها"(١)

وهى ترتبط بالمجتمع فى الدلالة إذ هى لا توجد إلا بوجوده، وهو لا يقوم ويبقى إلا بها فهى "طريق متميز لحياة الجماعة ونمط متكامل لحياة أفرادها"(٢) وهى كما عرفها إدوارد تايلور:"كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق، والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التى يكتسبها الإنسان (بوصفه) عضوا فى مجتمع "(٣).

---

(١) محمود محمد شاكر، المتنبي، رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ص ٦٨. ومن أراد تعريفا شافيا للثقافة فليرجع فى هذا الكتاب إلى صفحات: ٧٣،٧٢،٢٨، ٧٤، ٣١، ٣٢.

(٢) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة د. على سيد الصاوى، تقديم أ.د.الفاروق زكى يونس، عالم المعرفة – الكويت العدد ٢٢٣، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ص ٨ .

(٣) السابق ص٩.

مشكلة وَرَدّْ:

كما أن الأدب تعبير عن شخصية صاحبه، فهو تصوير -أيضا- لحالة مجتمعه عاداته وثقافاته، وسلوك أهله وأخلاقياتهم وطبائعهم.

وهذا من المسلمات التى لا يكاد يختلف اثنان حولها، ولكن بعض الباحثين يجانب الصواب أحياناً فيرى أن شاعراً كابن سناء الملك كان يعيش بشعره فى وادٍ، ويعيش حياة المجتمع فى وادٍ آخر(١)، فلا شعره صورة لنفسه ولا هو صورة لمجتمعه!! وذلك- فيما أرى مما يناقض الطبائع البشرية القويمة؛ فالذى يعيش تلك الحياة الفصامية أحد اثنين: إما متخلف عن ركب قومه لا يعيش ما يعيشون ولا يحس ما يحسون ولا يرى ما يرون، وإما مجنون يترءى له أن له عالماً خاصاً به وسلطاناً هو المسيطر عليه فهو له يكتب وإليه ينشىء وفيه يبدئ أقواله ويعيد.

والحق أن ابن سناء الملك -من خلال ما روت عنه الكتب- لم يكن واحداً من هذين الصنفين؛ بل كان الرجل مبرزاً فى قومه، فاعلاً فى مجتمعه، ارتقى إلى المناصب المحترمة ونال من المكانات السامية؛ إذ كان نائب القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ومستشاره، وكان شاعر مصر الأكبر بشهادة أهل عصره وغيرهم، فلقد رأى الدكتور شوقى ضيف أنه "كان أشعر أهل مصر فى زمنه وقبل زمنه، إذ كانوا جميعاً أصحاب دواوين صغيرة ... أما هو فقد كان صاحب ديوان كبير يحتوى على مئات القصائد والمقطوعات وكأنما اختارته مصر لتقول هذا شاعرى،وشعرى، واضعة فيه خصائص روحها، ليكون صورة لها قبل أن يكون صورة لنفسه"(٢).

والمجتمع الأيوبى -كما نعلمه- مجتمع كانت ثقافته إسلامية سنّيّة، قامت على أنقاض شيعية الفاطميين؛ "فمن الأسباب التى أدت إلى اهتمام(بنى زنكى) بالعلم والأدب، أن بنى زنكى حملوا على عاتقهم محاربة المذهب الشيعى ببلاد الشام ونشر المذهب

---

(١) د. عبد العزيز الأهوانى، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢، ص٤؛ إذ يرى أن هؤلاء الشعراء كادوا يفصلون فصلا تاما ما بين شعرهم وحياتهم العامة والخاصة، ولقد عاشوا فى دواوين الشعر العربى القديم أكثر مما عاشوا فى بيئاتهم المعاصرة " .

(٢) د. شوقى ضيف، فصول فى الشعر ونقده، دار المعارف ط٣ ١٩٨٨ ص ١٧٨.

السنى، وكان من المنتظر أن يقوم العلماء والأدباء بتلك المهمة، وقد سار صلاح الدين الأيوبى على (نفس هذه السياسة)، عندما أخذ فى محاربة المذهب الشيعى بمصر"[(١)]، فثقافة الأيوبيين تزخر بالعلوم الإسلامية الشرعية والعربية والعقلية، وتلك العلوم التى رؤى غير كتاب[(٢)] أنها كانت فى ازدهار ونشاط فى إطار حركات التأليف والتلخيص والشرح، كان لها أثرها فى صور الشعراء وذلك أمر طبيعى لأن العلوم المكتسبة ركن من أركان الذاكرة، وعمود من أعمدتها، فلا بد أن يظهر أثرها فيما تنتجه تلك الذاكرة، وكذا فتلك العلوم تشكل – بما تحويه من ثقافة – شخصية متلقيها وتؤثر فى عواطفه فتتحكم – بالتالى – فى شعره بوصفه رد فعل تجاه المؤثرات المتعاقبة.

"وقد يظن بعض الناس من استخدام ابن سناء الملك وغيره لبعض المصطلحات العلمية تظرفا، واقتباسهم لبعض آيات الذكر الحكيم، أنهم كانوا يتجهون بأشعارهم إلى طوائف الدارسين للعلم والحافظين للقرآن الكريم متناسين أو جاهلين أن ذلك كله كان يدخل فى الثقافة الشعبية العامة للأمة حين كان العلم والقرآن يدرسان فى المساجد ومن حق كل شخص أن يقعد فى حلقة أى أستاذ يسمع ويعى دون أن يدفع أجرا "[(٣)] فالصور الفنية التى تمتلئ بها دواوين الشعراء لا بد أن تحظى بنصيب موفور من آثار تلك العلوم من نحو وحديث وفقه ونقد وعلم كلام، فهل ظهر ذلك فى شعر ابن سناء الملك وفى صوره الفنية؟؛ هذا ما يحاول رصده المبحث التالى.

---

(١) العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق وشرح وتقديم/ محمد محمود صبح، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، عدد ٩٠، ص١٧ من المقدمة وفيها خطأ طباعى حيث رفع كلمة (بنو) بعد كلمة (اهتمام) والصواب أنها مجرورة بالياء للإضافة كما أثبتها.

(٢) منها على سبيل المثال: "الأدب فى العصر الأيوبي" لمحمد زغلول سلام،وكتاب "الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى" لعبد اللطيف حمزة ، طبعته دار الفكر العربى طبعة ثامنة سنة ١٩٦٨م ، وقد عقد المؤلف الباب الثالث من الكتاب للحديث عن البيئات العلمية وأنواع العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الوقت، وكتاب الأدب العربي فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية الدولة الأيوبية" لـ محمود مصطفى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧، قدم له شوقى ضيف، وقد عقد المؤلف الفصل الثامن منه للحديث عن الأدب والعلوم فى مصر من سنة ٥٦٧ إلى سنة ٦٤٨، وقد طبعت مكتبةالآداب من هذا الكتاب نسخة معدلة قام بالتقديم لها د. محمد عبد المنعم خفاجى، وفهرسها الزميل حسن النجار سنة ٢٠٠٣، وكتاب عصر الدول والإمارات فى الجزء الخاص بمصر للدكتور شوقى ضيف فى الفصل الثانى من الكتاب.

(٣) د. شوقي ضيف، فصول فى الشعر ونقده، دار المعارف ط٣ ١٩٨٨ ص١٧٩.

المطلب الأول، علوم العصر وأثرها فى صور ابن سناء:

كان "نظام التعليم فى المدارس الإسلامية – في العصر الأيوبى– يقوم على مرحلتين: مرحلة التعليم الابتدائى: وكان منهاجه فى جميع البلاد الإسلامية يقوم أساساً على كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف والشعر، والمرحلة الثانية: التعليم العالى وكان يقوم على تفسير القرآن ومعرفة الديانات والفلسفة وأصول اللغة وفقهها والشعر وعلم القراءات والفقه بمذاهبه والتاريخ وعلم البلدان (الجغرافيا) والحديث وعلومه"(١).

وابن سناء الملك واحد ممن تربوا فى ظل هذا النظام التعليمى؛ حفظ فى صغره آى الذكر الحكيم ثم توجه إلى بعض المعلمين لتعليمه الكتابة وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار ولم يلبث أبوه أن عهد به إلى ابن برى أكبر أئمة النحو واللغة المصريين – حينذاك ليعنى بتخريجه فى علوم العربية، والتلميذ الفطن يحصل تلك العلوم ويجد فى تحصيلها وتحصيل غيرها من علوم العربية متعمقاً ما استطاع التعمق فى قراءة علم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق مما نجد آثاره فى شعره(٢).

تربى ابن سناء الملك فى ظل هذا التعليم السائد فى المدارس الإسلامية آنذاك وكانت موهبته الشعرية تسير متوازية مع ما يتعلمه، حتى أصبح شاعراً "ممتازاً إلى أبعد حدود الامتياز"(٣)، بل أصبح "أشعر أهل مصر فى زمنه وقبل زمنه"(٤) على حد تعبير د.شوقى ضيف وقد ظهرت آثار ما تلقاه من العلوم في صوره الفنية وفيما يلى عرض لأبرز العلوم التى ظهر أثرها فى صوره الفنية:

١- علم النحو:

كان علم النحو من العلوم التى لا يكاد أحد يبرز فى العلم الشرعى والشعر العربى إلا وقد ألم به لارتباطه بالقرآن الكريم وإقامة قراءته فهو من الأسس التى ينبغى أن لا تفوت الدارس المسلم ولذا فقد استمر على العصور منذ بداية وضعه إلى ما شاء الله، ويبدو

(١) د. محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر الأيوبى، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٧ ج ١، ص ٩٠.
(٢) د. شوقى ضيف، فصول فى الشعر ونقده ،ص١٧٢ بتصرف.
(٣) السابق، ص١٨٩.
(٤) السابق، ص ١٧٨.

أن مسائل النحو كانت مثار شغف وجدل لدى شعراء ومثقفى العصر الأيوبى، حتى رأينا مسائله تظهر فى أشعارهم أطرافاً فى صور فنية، مما يدل على أنها أصبحت من الشهرة بمكان بحيث إذا جاءت فى الشعر لا يحتاج إلى دراستها بقدر ما يحتاج إلى فهم وظيفتها فى الصورة الشعرية ومن ذلك قول ابن سناء الملك(١):

عهدى بطيفك بعدَ بعدك قاضياً حقيّ عليك فما عدا .. فيما بدا

رفع الجميلَ وكان مبتدئاً بـــه أو ليس قد أمروا برفع المبتـــدا

فالصورة كما نراها .. صورة الطيف الذى ينوب عن صاحبته فيقضى ما عليها من حقوق لهذا الشاعر، وهو طيف يحق الحق، ولا يعدو فى قضاء (الدين) بل إنه لا ينتظر أن يبدأ بالجميل بل يبادر فيبدأ بإبداء الجميل تكرماً منه، ويرفعه إلى الشاعر فيجد الشاعر لذلك مناسبة وشبهاً من علم النحو، أن المبتدأ به من الأسماء حكمه الرفع فهى تورية تتخذ من النحو وسيلة لبروزها. ومن تأثره بمسائل النحو قوله:(٢)

مكمّـــلٌ وســـواه نـــاقص أبـــداً كأنه "إن" قد جاءت بلا خبـــر

فقد أدخل الشاعر تلك الصورة النحوية فى الشعر وتوصل بها إلى مديح مليكه العادل أبى بكر بن أيوب، الذى رآه كاملا مفيدا كالجملة التامة المفيدة، أما غيره فهو ناقص يصدق عليه التشبيه السابق، وهو – كما نرى – يستخدم مصطلح "إنّ" ومصطلح "خبر" ويجعل "إنّ" بلفظها اسماً تصلح معه أن يشبه بها لما لها من معنى مستقل بوصفها مصطلحاً نحوياً معلوماً.

وفى استخدامه "إن" دون غيرها نكتة أخرى فهى حرف والحرف لا يظهر معناه كاملا إلا مع غيره، وهو مع ذلك حرف يوصف بأنه "حرف ناقص"؛ حيث إن من النواسخ ما يأتى تاما مثل كان التى تكتفى أحيانا بالمرفوع.

---

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٩٥.
(٢) السابق، ص١٤٣.

وأبواب النحو -كالعطف والنعت- قابلة لأن يورّى بأسمائها فى شعر ابن سناء الملك إذ يقول(١):

ومن نحو شعرى جاءه باب نعته لعلّى أقرا بعده بـاب عطفـه

فـ"النحو" هنا تورية عن الجهة، وهو يرشح المعنى القريب الذى هو "علم النحو" بقوله "باب" و"النعت" موريً به عن "النعت" بمعنى الصفة، و"العطف" كذلك بمعنى الحدبِ والرحمة ولكن الشاعر يرشح لمعنى قريب له وهو "باب العطف" فى علم النحو، فهى صورة بديعية تتخذ من مصطلحات النحو منطلقاً لإقامة التورية.

والضم والرفع والإعراب واللحن من مصطلحات النحو التى وردت كذلك دليلاً على تأثره وكلفه بالنحو، إذ يقول متغزلا(٢):

عربى الأنساب لا يعرف اللحـ (م) ـن لإعرابه بضـمّى ورفعـى

فهو لا يلحن فى الضم والرفع فى كلامه، وكذا إذا لمحنا المعنى البعيد فإن من يتغزل فيه لا يلحن فى "ضمه" أى حضنه ولا فى "رفعه".

ومن صوره الطريفة التى يتأثر فيها بالنحو ويتحيل لها قوله(٣):

ووصل تولى أدمج الدهر ذكـره كما أدمجت فى منطق ألف الوصل

فالوصل الذى تولى وبقى منه أثر أصبح مثل همزة الوصل التى تظهر فى الكتابة وتدمج فى النطق.

ومن صوره التى تأثرت بدرس النحو، تلك الصورة التى صور الشاعر فيها ممدوحه "الظاهر غازى" يعمّ الناس بجوده ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، فهو المضاف وهم مضافون إليه، وهو فاعل الجود وكونهم مضافين وكونه فاعلاً جعلهم يكتسبون منه الرفع فى

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٩٨.
(٢) السابق، ص ١٩٢.
(٣) السابق، ص ٢٢٢.

المعنى، وإن كانوا بالنسبة له مخفوضين كالمضاف إلى الفاعل العامل فيه كقولنا: هذا مكرم زيد، وهى مسألة نحوية كما نرى يقول الشاعر(١):

ويخفضهم أنهم كالمضاف ويرفعهم أنه الفاعل

وانظر إلى "الواو" وهى حرف عطف، يشبه خصلة الشعر الملتوية فوق خد الجميلة ثم انظر كيف استدرجه ذكر واو الصدغ هنا واستهواه إلى باب العطف، والبدل فقال(٢):

هب أَنّني كنتَ أهوى جورَه سفهاَ منَي أَمَا كان يهوى جَوْرُه الملَلاَ
وهبه والصُّدغُ واوٌ فوقَ وجنته لا يحسنُ العطفُ أَنّى يَحسنُ البَدلا

والبيت وإن تأثر فيه بالنحو فيه خلل نحوى لأن البيت مروىّ فى الديوان برفع كلمة "العطف" على أنها فاعل لـ "يحسن" ، وكان المنطقى أن يرفع "البدل" على الفاعلية لـ "يحسن" الثانية، ولكن "البدل" لا بد من نصبها لأنها كلمة القافية، واللام فيها هى الروى وهو فى القصيدة لام منصوبة، فهو نصبها لضرورة الشعر على ما فى ذلك من فهم خاطئ لأن الضرورة صالحة ما لم تلبس، لا سيما فى باب كباب "الفاعل" يوقع اللبس فيه فى أخطاء فى المعانى والأحكام وهذا من سقطات ابن سناء إن صحت الرواية.

أو أن يكون الفعل "يحسن" ، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى الضمير فى "هبه" فيكون "العطف" حينئذ منصوباً على المفعولية، وكذلك البدل ويكون المعنى أن هذا الحبيب لا يحسن أن يعطف علىّ وأنا عاشقه المعذب، فكيف يحسن أن يبدلنى من نفسه كما يتطلب الحب ويكون ذلك من أخطاء المحقق الذى لم يراع الدقة فى الشكل.

ومن إيراده مصطلحات النحو إيراد "الأسماء والأفعال" فى قوله(٣):

هو الملك القيل الذى خضعت له على الرغم أملاك عظام وأقيال
وأسماؤهم بين البرايا سماتهم وأسماؤه بين البرية أفعال

(١) السابق، ص ٢٣٩.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٤١.
(٣) السابق، ص ٢٥٤.

فممدوحه وهو الملك الكامل تتعدد أسماؤه بتعدد خصاله؛ إذ أصبحت خصالاً بعد كثرة ورودها أفعالاً، وأظن أنه يقصد بقوله "أسماؤه" صفاته المتعددة مما يمدح به مثل المحسن، المكرم، الجواد، الشجاع، البطل، المقدام .. الخ.

والشاعر هنا يقول أن هذه الصفات ليست لمجرد الوسم بها – كما هو معروف فى الأسماء التى قد تجد مسماها على غير معناها – ولكن هى أسماء سميّ بها لأنه يفعل معانيها.

ومن تأثره بعلم النحو فى صوره ورود أسماء بعض كتب النحو ومؤلفيها كما جاء فى قوله(١):

وقرأنا الغريب من فمها الكـــا مل حسنا والثغر فيه المبـــرد

فقد " وصف حسن الفم وغرابته ثم وصف الثغر بالمبرد ، وهو من الآثار العلوية يكثر فى الشتاء ويعف بحب الغمام أيضا، وكثيرا ما يستعير الشعراء للأسنان الشديدة البياض وزاد فى شعره حسنا لما ذكر الغريب والكامل والمبرد لأنه رشح التورية حين أشار إلى كتاب المبرد النحوى المسمى بالكامل"(٢).

وكما ورى بالكتب ومؤلفيها فإنه يتخذ من التشديد والتضعيف وسيلة لتصوير قوة اندماجه مع حبيبته فى مشهد التعانق؛ حيث يعانق الشاعر حبيبته عناقا شديدا فينصهران معا ويندمجان إلى أن يصبحا جسما واحدا أو حرفا مشددا فهو واحد فى الشكل وإن حوى اثنين(٣):

وبتنا كجسم واحد من عناقنـــا وإلا كحرف فى الكلام مشـــدد

ويلجأ الشاعر أيضا إلى الإعراب والبناء وهما من مصطلحات النحو فيورى بالإعراب عن الإبداء لشيء أو إظهاره، وبالبناء عن الالتزام لصفة واطرادها فى حبيبته يقول(٤):

---

(١) السابق، ص ٦٢ .
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، هامش ٩، ص ٦٢ .
(٣) السابق، ص ٨٢.
(٤) السابق، ص ٢٨٨.

لقد أعربت عيناه عن سحر بابل وإن كان مبنى الجفون على الكسر

فعيونها تعرب عن سحر بابل (أرض السحر)، ومع إعرابها عنه فإن جفونها مكسورة ملازمة للكسر، وكسر الجفون مما يكثرا جدا فى تصوير الجفن لدى ابن سناء وتلك الملازمة يعبر عنها "البناء" بوصفه مصطلحا نحويا معناه: لزوم الكلمة حالة واحدة فى جميع التركيب.وهكذا نرى أن علم النحو من العلوم التى تأثر بها ابن سناء الملك علما ودراسة فظهرت مصطلحاته فى شعره حتى أصبحت المصطلحات من الأمور التى يشبه بها ويورى بها وكأنها من مفردات الطبيعة التى أصبحت تتبدل بالأشجار والأحجار والأنهار، علوما ومصطلحات وكلمات، وشكولاً كتابية وشاعرنا كاتب يمثل النحو إحدى آلاته التى يعمل بها.

٢- علم الفقه:

"كان عصر الأيوبيين عصر إحياء لفكر والثقافة الإسلامية والعربية كما كان عصر إحياء سياسى، وتمثل هذا الإحياء فى بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن والحديث اهتماما بالغا والحق أن العلم كان رائدا للناس جميعا وكانت الغيرة عليه من غيرتهم على أوطانهم ودينهم"(١)

كان الفقه ولم يزل من أهم العلوم الشرعية لارتباطه بعلاقة الإنسان بربه فى العبادات وبمجتمعه فى المعاملات والعقود والمواريث ،" وكانت للناس به عناية خاصة وكان للفقهاء مكانة رفيعة عند سلاطين بنى أيوب وكثيرا ما كان أحدهم يجلس إلى الفقهاء للاستعانة بآرائهم وكان للفقهاء نفوذ كبير فى دولتهم "(٢) ويبدو لى أن المذهب الشافعى كان الأكثر رواجا فى الديار المصرية وقتئذ وابن سناء الملك على وجه الخصوص من الشعراء الذين كان يلتزمون مذهب الشافعى رحمه الله ولقد ترجم له فى طبقات الشافعية .

(١) د.محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبي ، ج١ ص ٨٣.
(٢) د.محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبي ، ج١، ص ١٠٠.

والفقه الإسلامى هو منهج حياة المسلمين والمتحكم فى توجهاتهم ، ولذا فإن دراسته ودروسه تعد من الأركان التى تقوم عليها ذاكرة الأمة الإسلامية فلا عجب أن نجد لدى الشعراء مصطلحات فقهية ترد فى أشعارهم وتبرق بين الفينة والأخرى ويبدو لى أن ابن سناء الملك كان من النابهين فى دراسة الفقه ؛ فذاكرته ما تنى تمده بما حصلته من علم الفقه خلال الصور الفنية فى شعره ليكون الفقه بذلك خطا بارزا ولونا واضحا فى صوره الفنية التى تتأثر بالثقافة الإسلامية .فهو فى معرض مدحه للمظفر تقى الدين يورى بمصطلحين فقهيين هما الفرض والندب إذ يقول(١) :

وردك فينا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

"وواضح من هذا البيت أن اسم المظفر تقى الدين هو:عمر (إذ شبهه قبلها بعمر بن الخطاب رضى الله عنه) وفى هذا البيت تورية فى كلمتى الفرض والندب والمقصود بالفرض العطاء بالندب السريع فى قضاء الحوائج "(٢)

ونصاب الزكاة فى الذهب عشرون مثقالا؛ فإذا بلغت حبيبته عشرين عاما فإن خدودها التى يكثر فى ديوانه تشبيهها بالذهب قد استوجبت الزكاة ولذا نراه يقول(٣) :

وغانية لم تعد عشرين حجة أقول لها قولا لديه ثواب
عليك زكاة فاجعليها وصالنا لأنك فى العشرين وهى نصاب
وما طلبى إلا قبول وقبلة وما أربي إلا رضا ورضاب

فالثواب يرشح للزكاة، والنصاب، ويشعرك أنك فى حلقة من دروس الفقه فى مسجد لولا نوعية النصاب، ونوعية الزكاة المطلوب أداؤها، إذ الذاكرة هنا توظف مخزونها الفقهى فى موقف عاطفى غزلى.

وفى مديحه للقاضى الفاضل يردد مصطلحى الفرض والندب فيقول(٤) :

---

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١١.
(٢) السابق، هامش، ص ١١.
(٣) السابق، ص ٢٠.
(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣١.

ورأت حبه الملوك مـــن الفـــر (م) ض ولا فرض مثل حـــب النـــدب

ويقول(١):

وأقام شرعا للمعارف خيرهـــا منه وفرضا للمكـــارم نـــدبها

والضمير فى "خيرها" و"ندبها" يعود على الخلائق فى البيت السابق لهذا البيت وخيرها وندبها يقصد بهما ممدوحه القاضى الأشرف بهاء الدين بن القاضى الفاضل.

ومن مصطلحات الفقه، التى جاءت فى شعره - كذلك -: الجواز والوجوب؛ إذ يقول(٢):

نرفع قولى عـــن أن يقـــا (م) ل فيه يجوز ولكن يجـــب

وكلمة "قولى" هنا معناها شعرى أى مدحى للقاضى الفاضل الممدوح واجب لا جائز والوجوب والجواز من الأحكام الفقهية الشرعية لكنه نقله إلى مسألة مباحة من المعاملات الإنسانية وهى مقابلة العطاء بالمدح شعرا إذ يصبح الشعر حينئذ قضاء دين.

ومن أبواب الفقه باب البيع، وفيه أن البضاعة المبيعة إذا كانت رديئة جاز ردها وشاعرنا هنا باع نفسه لحبيبه، وهو يرى نفسه "بضاعة" أخذها الحبيب لكى يمنحه الحب، فلا هو منح الحب ولا هو رد البضاعة، فإذا كان السبب فى ذلك أن البضاعة رديئة فليعدها إليه ليعيش الشاعر بنفس هانئة وقلب خلي يقول الشاعر(٣):

يا ليته أســـلفنى موعـــدا ودعه لا يصدق فى الموعـــد

أو رد لى نفسا ولم يرضها فالشرع قد جاء برد الـــردي

ولا يظن أن وصف نفسه هنا بالرداءة فيه شيء من الخسة أو الشعور بالدونية بل هو التهالك فى الحب، الذى تميز به من قبل شعراء بنى عذرة حتى أنه فى البيت الأول من صورته السابقة يكاد يلخص ما قاله جميل بن معمر من قبل: (٤)

---

(١) السابق، ص ٣٧.
(٢) السابق، ص ٤٣.
(٣) السابق، ص ٦٩.
(٤) أبو الفرج الأصفهاني، الأغانى، ١١٢/٨.

وإنى لأرضى من بثينــة بالــذى ... لو ابصره الواشي لقرت بلابلــه
بلا وبــأن لا أســتطيع وبــالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آملــه
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضى ... أواخــره لا نلتقــى وأوائلــه

والفارق بين الشاعرين بين فى التلخيص الذى يدل على طبيعة عصر ابن سناء والإطناب الذى يحكى استرسال جميل بن معمر وطبيعته النفسية من جانب وطبيعة عصره من جانب آخر فشاعرنا ربى فى بيئة علمية متحضرة وعصر علمى يختلف اختلافا كبيرا عن عصر جميل وبيئته فهو يتأثر بالفقه فيطلب رد نفسه بطريقة دارسي الفقه ويقدم علة الرد وهى " الرداءة " وأقول : إن الرداءة هنا دعته إليها علة عصرية أيضا، هى علة الجناس الذى دعا إليه التقارب الاشتقاقى بين الرد ، والردي ، وتصوير نفسه رديئة إنما هو من وجهة نظر حبيبه أو طرف العقد الثانى من باب الاستدراج أو مجاراة الخصم فى الحجاج.

وفى مقام الغزل يعلل طلبه للوصال دائما بالافتقار إلى حبيبه وحبيبه هو الغنى المثرى من الجمال ليصل بهذا إلى أن على الغنى أداء الزكاة للفقير ويجعل الوصال هو الزكاة يقول الشاعر(١):

وقلت له أد الزكــاة لأهلهــا ... فوجهك مثر من لجين وعســجد

ويدخل كذلك التأثر بأمور الفقه طلب الشهادة فى الحدود لدى القاضى وهو هنا يقيم دعوى أن حبيبته قتلته ويطلب شهوده ، فيبدأ أولا بإقامة الدعوى المتمثلة فى أنها قتلته بالفراق بقوله (٢):

لو واصلتنى يوما لم أمــت أبــدا ... أو لم تصلنى فيا موتى بها كمــدا

ثم يجر ذكر الموت فى البيت السابق إلى ملمح فقهى آخر وهو الميراث والوصية (٣):

لمن أوصى بميراث الغــرام لهــا ... هيهات هيهات لا أرضى لها أحــدا

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٨١.
(٢) السابق، ص ٩١.
(٣) السابق، ص٩١.

وهو هنا يستلهم بيت النمر بن تولب، الذى أنكرته عليه سكينة بنت الحسين رضى الله عن أبيها وأمها وصلى على جدها والبيت هو: (١)

هو الملك القيل الذى خضعت لـه ... على الرغم أملاك عظام وأقيال
أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى

والبيت مروى فى "الأغاني" بروايات متعددة وكذلك مقترحات النقاد على الشاعر متعددة أيضا فيما ينبغى أن يقوله عن حال حبيبته إذا مات، ففكرة الاهتمام بحب الحبيبة بعد الموت مكررة، غير أنها هنا أتت فى صورة فقهية إذ يصبح الغرام ميراثا ووصية.

ثم يستطرد فيأتى بالشهود على حادث القتل فيقول (٢):

وإن تشككت أنى قد قتلت بها ... فاستقسم الدل أو فاستشهد الغيدا
فثغرها ومحياها وقامتها ... كانوا على كما شاء الهوى لبدا

وكما ترى معى فقد طلب القسم من الدل ،والشهادة من الغيد وفى ذلك دقة فى رسم الصورة والإتيان لكل بما يناسبه، وهذا تقسيم حسن ودقة فى الوصف؛ فـ"الدلال" يستدعى الإنكار فى الشهادة لأن المتدللة تظهر الإعراض وتبطن الميل، ولذا فقد طلب القسم من الدلال ، و"الغيد" وهو النعومة والجمال وهذا لم يطلب منه القسم لأن شواهده لا تحتاج إلى قسم وإلا لما كان هناك داع للحب، ولا يظن أننى أتمحل هذا المشهد القضائي لأثبت تأثره بالدرس الفقهى فهو يقول بعد هذا (٣):

وليس ينفع فاها جحده لدمى ... وخدها عند قاضى الحسن قد شهدا

وهى صورة أخرى من صور تأثره بالفقه أو قل:هى تمام الصورة السابقة لأن الحبيبة سوف تنكر قتله ، ولكن خدها المشرب بدم الجمال والحياء هو أداة القتل هنا وعليه أثر دمه وكأن خدها استعار دم الحياء من الشاعر.

---

(١) نسب البيت مرة إلى نصيب، فى ١٣٧/١٢، ونسبه مرة إلى النمر ابن تولب فى٢٢/ ٢٧٩ والأقوى أنه للنمر قال أبو الفرج:" والناس يروونه لنصيب وهو خطأ" ٢٢/ ٢٨٠ وإن كان كثير من الكتب نصت على أنه لنصيب مثل الأشباه والنظائر للخالديين، والمستظرف للأبشيهي وغيرها.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٩١.
(٣) السابق، ص ٩١.

والتحريم والتحليل والعقود أيضا من المصطلحات الفقهية التى لها ظهور فى شعر ابن سناء إذ يقول(١):

ويا من بفيه لنا سكر ولكنه سكر مسكر
يحلل جهرا عقود العقول (م) فمن أجله حرم المسكر

ثم إنه يعرض موقف حبيبه منه فى صورة فقهية أخرى هى الفطر لرؤية الهلال بعد الصيام فى جو فقهى يقول(٢):

أصوم عن الوصل دهرى وقد رأيت الهلال ولا أفطر
وأنت الهلال وأنت الهلاك بقتلى تفتى ولا تفتر

فالصوم، ورؤية الهلال، والإفتاء كل أولئك من تأثير درس الفقه ومصطلحاته فيه.

ومن دروس الفقه أيضا الطهارة حيث إذا تنجس الإنسان مكانا أو ثوبا أو بدنا وجبت عليه الطهارة بإزالة النجاسة ويقدم ابن سناء الملك صورة للبلاد وقد تنجست بأن وطئ النصارى أرضها فكيف تغتسل البلاد؟ يقدم ابن سناء الملك أداة وهى الماء ولكن الماء غير موجود فليكن ماء الغسل هو دم هؤلاء النصارى ولترو الأرض من دمهم، وهو نوع جديد من الغسل لم يجئ فى النقل عن السلف يقول ابن سناء(٣):

أبدت النصارى واليهود بمعركك وما جاء هذا قط فى سالف النقل
وكانت بهم تلك البلاد تنجست فناب دم منهم عن الماء فى الغسل

فالنقل ، والنيابة، والغسل، أمور خاصة بالطهارة فى الفقه .

ثم يتأثر فى الصورة نفسها بألفاظ الفقه وهو يخاطب ممدوحه قائلا(٤):

تكبر فيها الله فى الجامع الذى جمعت به بين الفريضة والنفل
وصليت فيها جمعة بجماعة تناديك للإسلام يا جامع الشمل

(١) السابق، ص ١٣٩.
(٢) السابق، ص ١٣٩.
(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٢٥.
(٤) السابق.

وإذا كان الغسل من دروس الفقه، التى وردت لديه؛ فالتيمم كذلك يأتى فى صورة فنية أخرى فى مدحه، إذ وجود الماء لا يبيح التيمم؛ فماذا إذا كان الماء قد طبق الأرض مده؟(١):

رأيتك بحرا طبق الأرض مـــده فلم تبق عندى رخصة للتـــيمم

والليل والبحر من الأمور التى يشبه بها الممدوحون فى الإدراك والإتيان على الصفة فلقد شبه النابغة النعمان بن المنذر بالليل منطلقا من عاطفة الخوف فقال(٢):

فإنك كالليل الذى هو مـــدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فأين يذهب والليل لا شك آت عليه؟ وشاعرنا هنا كيف يتيمم والبحر آتٍ على كل شبر من حوله ولا يشكّ فى أن البحر هو جود الممدوح .

ومن تأثر بدروس الفقه التورية بأسماء علماء الفقه كقوله(٣):

فمن شافعى بين الورى عند مالك لنعمان خديه الشقائق تنســب

"وقد روى قوله هذا بالإشارة إلى الأئمة الثلاثة الشافعى ومالك وأبي حنيفة والمعنى : من يشفع لى عند حبيبي ومالك رقبتى الذى حمرة خديه كحمرة شقائق النعمان "(٤)

ومن تأثر بالزكاة ونصابها أيضا قوله(٥):

وقبلته فى الخد عشـــرين قبلـــة وذاك نصاب لم أقـــم بزكاتـــه

ومن دروس الفقه التعزير لمن يرتكب خطأً وذلك من حق الإمام (٦):

يا ليتنى عـــزرت فيـــك فلـــو عزرت فيك حمـــدت تعزيـــرى

وإذا افترى أحد فرية على أحد أقيم عليه الحد ، فعين الشاعر تكذب عليه فيبيت الخيال فى ناظره، ولذا فهو يحدها حد المفترى (٧):

والعين تكذب إذ يبيـــ ـــت خياله فى محجرى

---

(١) السابق، ص ٢٨٥.
(٢) النابغة الذبيانى، ديوانه، شرح وتقديم عباس عبد الستاردار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٨٤ص ٥٦ .
(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٦٦.
(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، هامش ص ٣٦٦.
(٥) السابق، ص ٣٧١ .
(٦) السابق، ص ٣٩١.
(٧) السابق، ص ٣٦٦.

ولأجل ذلــك حــددتها بالــدمع حــد المفتــرى

وهكذا نرى أن علم الفقه من العلوم الشرعية التى تأثر ابن سناء الملك بدراستها وكانت ذات أثر فى مخيلته، مما يؤكد مركزية الثقافة الإسلامية لديه، وأظن أن الفقه غلب عليه لنشأته فى بيت قضاء إذ كان أبوه الرشيد جعفر ابن سناء الملك أيضا قاضيا وآلة القضاء الفقه، ولاشتغال شاعرنا بالقضاء، مما يظهر من لقبه إذ هو "القاضى السعيد".

٢- علم النقد:

اهتم الدارسون اهتماما بالقصيدة العربية ومنهجها، وسبروا أغوار أصولها البعيدة منذ الجاهلية من حيث موضوعاتها ، وأشكالها ، بحورها وقوافيها ، وأسسها النقدية التى ترتكز عليها ، وظلت الكتب النقدية تتوارث فكرة منهج القصيدة وما ينبغى أن تسير عليه كالبدء بالطلل والغزل ثم التطرق إلى الوصف ثم إلى المدح والاستجداء .

وكان الدارسون فى العصر الأيوبي كأسلافهم لا ينفصلون عنهم، توارثوا دراسة النقد الأدبي وكتبه، وألفوا فيه، فكان لقواعد النقد الأدبي ظهور فى أشعارهم إما تطبيقا لقواعده على القصيدة الأيوبية، وإما ظهورا لمصطلحات النقد على الصور الفنية بوصفها من روافد العقلية العلمية الأيوبية.

وابن سناء الملك كان يؤمن بأن القصيدة العربية ذات منهج ينبغى أن تسير عليه هو ما حدده ابن قتيبة من قبل فى كتابه الشعر والشعراء وهو مشهور، فالقصيدة يجب أن تبدأ بالغزل والبدء بغير الغزل استثناء، يدفع إليه الحب الشديد للمدوح الذى يتوجه الشاعر بالخطاب إليه كما قال لصلاح الدين (١):

ألهى مديحك شعرى عن تغزلــه فجاء مقتضبا فى إثر مقتضــب

فلم أقل فيه لا أن الصــبابة لــى يوم الرحيل ولا أن المليحة بى

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤ وتتكرر الفكرة نفسها عنده فى ص ٢٧٢ ، ٢٩٣.

وهو يعتذر بذلك عن مطلع قصيدته (١):

بدولة الترك عزت ملة العـرب وبابن أيوب ذلت شـيعة الصـلب

ويكرر الفكرة نفسها وهو يمدح المظفر تقى الدين صاحب حماة (٢):

وألهى مديحى فيك شعرى عن الهوى وإن كنت صبا بالمديح الذى يصبى
فشخصك أشهى فى فؤادى وناظرى ومدحك أحلى فى لسانى وفى قلبي

وكأنه يرد حجة ابن قتيبة من أن الغزل " لائط بالقلوب " وأنه هو ما يستميل إليه النفوس لأن الناس لا يخلو أحدهم من ضارب فيه بسهم إما حلال أو حرام، إذ يثبت له هنا أن شخص الممدوح أحلى من المتغزل فيه، والحديث عنه أحلى من الغزل، ولعل هذا أصبح منهجا واضح الملامح فى المديح عند ابن سناء الملك يشرحه بقوله: (٣)

مديحك كالمِسك لا يُكتَتَمْ بـه يُبْتَدَى وبه يُختَتَمْ
وما بَرِحَ المَدْحُ بَعْدَ النَّسيبِ وذا مَذْهبٌ شاعَ بَيْنَ الأُمَمْ
ومَدْحُكَ من قَبْلِ خَلْقِ النسيبِ ونظْمِ القريضِ وخَلْقِ النَّسَمْ
صِفَاتُك قائمةٌ في النُّفوسِ قديماً وثابتةٌ في القِدَمِ
على أَنَّ لي همةً في النسيبِ ولكنَّ مدْحَك مِنْهُ أَهَمْ
وإِنَّ النسيبَ إذا ما مُدِحتَ يُقالُ ولكنَّه لا يَتِمْ
وإِن النسيبَ يَسُرُّ النفُوسَ ويُذْكِي العقولَ ويُصْفِي الشِيَمْ
ولا سيما وَهْوَ مِنْ عَاشِقٍ رماهُ الهوى وبراهُ السَّقَمْ

وقد يكون سبب تأخير النسيب عنده هو التهيب لا الحب كما قال: (٤)

لمدحك أَخَّرتَ النسيبَ تهيُّباً وعندُهمُ أَنَّ النَّسيبَ يُقدَّم

ويتعرض أحيانا لبعض المشكلات النقدية فى ثنايا قصيده كالبعد عن التعقيد وإرسال الكلام عفوا ، طبعيا ، يقول يمدح الوزير بن شكر (٥):

(١) السابق، ص ١.
(٢) السابق، ص ١٢.
(٣) السابق، ص ٣١٥.
(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٩٣.
(٥) السابق، ص ٨٢.

يؤاتيك بالسِّـــحر المحلّـــلِ هـــاجراً طرائـــقَ تعقيـــدِ الكـــلامِ المُعقّـــدِ
ليحُسن ما يأْتي بـــه اليـــوم طبعُـــه وأَحسْنُ منه ما يجيئُك فـــي غـــدِ

فهو كما ترى يمدحه بالبعد عن تعقيد الكلام وأن أحسن كلام ما يجيء عن طبع وقريحة سليمة.

وهو يفخر بنفسه فيعطيها ما مدح به ابن شكر من قبل فهو القائل على البديهة، وفى هذا دلالة ضمنية على أن ابن سناء يفضل الطبع على التصنيع والتكلف وإن كانت الأدلة المادية من ديوانه بين أيدينا تشهد بغير ذلك يقول (١):

إني بديهـــــيُّ الدمـــو ع وإنَّ دَمْعيَ لا يُبَادَه
دَمعي كَذِهنـــي في مدا ئح سيِّدٍ ولدته سَـــادَه
وهُو الَّذي يجـــدي ولمَّا جادَ علَّمني الإجـــادَه

وهو يرى أن الشعر من لوازمه جودة الإنشاد، وكأنه يفرق بين الشعر المكتوب والشعر المقول فى المحافل وبين الإنشاد الجيد والإنشاد غير الجيد يقول (٢):

محسِنٌ حسَّن العُلاَ ويزيدُ الـــ ـــبيتَ حُسْناً حَلاوَةُ الإنْشَادِ

ونلاحظ أن شعره دائما موضوع فى مقابلة العطاء من الممدوح وكأنهما نظيران وصنوان وشبيهان حتى فى عملية الإخراج فهو يحسن العلا بتحسين العطاء له، وكأن العطاء أبيات شعر وكأن حسن الأداء إنشاد مطرب.

وهو إذا فخر بالكلام المطبوع اقتضى ذلك ذمه للكلام المتكلف، والتكلف عنده موضوع فى مقابلة الطبع (٣):

تكلفوا وأتـــت طبعـــا مواهبـــه وفى البداوة حسن ليس فى الحضر

ويكرر المعنى ذاته فى قصيدة أخرى فيقول: (٤)

(١) السابق، ص ١٠٧.
(٢) السابق، ص ١١٣.
(٣) السابق، ص ١٤٣.
(٤) السابق، ص ١٥٥.

تصنعوا وأتـــت طبعـــا مواهبـــه تعطل البدو أحلى من حلى الحضر

وهو يذم الاختلاق فى المدح ملمحا إلى أهمية صدق التجربة فى الشعر قائلاً (١):

إن أمتدحه فمـــدح غيـــر مختلـــق يجزى عليه ببر غيـــر مختصـــر

ويشير إلى ذلك فى قصيدة أخرى يصور كلامه فى ممدوحه قائلا (٢):

فيك كلامـــى مصـــحب وفى ســـواك شـــامس

ويشبه الملوك ووضعهم إزاء الملك الذى يمتدحه بأنهم ملوك مجاز، فموقعهم منه كموقع المجاز من الحقيقة، أو الكلام المهمل من الكلام المستعمل يقول (٣):

ملك الملوك حقيقـــة وهـــم بـــه مثل المجاز أو الكـــلام المهمـــل

وقضية اللفظ والمعنى من قضايا النقد الأدبي فالفظ يحمل المعنى والمعنى لا وجود له من غير لفظ يقوم به من خلال علاقة بينهما، وتلك العلاقة التى تكون بين اللفظ والمعنى لقوتها أصبحت مثلا ورمز، تشبه به الوشائج والعلاقات بين الناس والأشياء، يقول ابن سناء الملك (٤):

وقد أصبحت مذ سرت مصر وأهلها كمعنى بلا لفظ ولفظ بـــلا معنـــى

وهى صورة عميقة، فمصر وطن، والوطنية معنى ولأنها معنى فلا يجسدها ولا يبرزها غير لفظ أو شكل تستقل به وتظهر من خلاله، هذا الشكل أو اللفظ هو الممدوح الذى يمثل مصر فتحل فيه ويقوم بها كقيام اللفظ بالمعنى.

وهى صورة عقلية جدلية مع ما فيها من عاطفة لكن العاطفة تتوارى شيئا ما فى التأثر بالعقلية العلمية التى تربت على وضع المقدمات واستنباط النتائج، والتعامل مع المسائل العملية والإشكاليات العقلية أكثر من تعاملها مع العواطف، لا سيما وأن العقل كان هو المقدم لأن العصر سياسيا كان يتطلب الحذر والتعقل فى كل الأمور، وتلك خاصية من خصائص الكتابة فى هذا العصر.

---

(١)ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٥٥.
(٢) السابق، ص ١٨٤.
(٣) السابق، ص ٢٥١ .
(٤) السابق، ٣٢٤.

وقد يزج ابن سناء الملك بنفسه فى مداخلة نقدية شعرية مع شعراء آخرين كتلك التى داخل فيها عبد الله بن المعتز ومهياراً الديلمى إذ عارضهما بقصيدته(١):

يا قلب مهلك إن ظبيك قد سنح ... فتنح جهدك عن طرائقه تنح

ثم يبين فضل قصيدته قائلا(٢):

ونظمتَها والوزنُ منها فاترٌ ... فأَتَتْ كأَنَّ الجمرَ منها قَدْ لَفَح
ضَاقَتْ قَوافِيها وصدْرِي ضَيِّقٌ ... فَلَو أَنَّها انْفَسَحت كَجودِك لانْفَسح
أَضْحَتْ على مِهيارَ قبلِي ناشِزاً ... إِنْ قَال عن محبوبِه فيها شَطَحْ
وتَتَابَعت فَتحاتُها فتَنَزَّهت ... عن قول عبدِ الله حَتَّى نَصْطَلح

ولقد حكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى هذه المداخلة فقال:" وهذه قافية حلوة أول من بلغنى نظم فيها عبد الله بن المعتز حيث يقول:

خل الزمان إذا تباعد أو جمح ... واشك الهموم إلى المدامة والقدح

فى أبيات أنكر عليه قوله فيها:

وإذا تمادى فى العتاب قطعته ... بالضم والتقبيل حتى نصطلح

وقال مهيار:

ما كان سهما غار بل ظبيا سنح ... إن لم يكن قتل الفؤاد فقد جرح
فى خده الكافور سبحة عنبر ... ما كان أغفلنى الغداة عن السبح
وأما ومشيته توقر تارة ... صلفا وأحيانا يجن من الفرح

فى أبيات أنكر عليه فيها قوله بطح "(٣) قال صاحب الطبقات " ثم إنه اعترض ابن المعتز ومهيارا بما اعترضهما وقع هو فى واحدة وهى قوله " لانمسح " فإنه لحن "(٤) وهكذا نرى أن علم النقد كان ضمن العلوم التى أسهمت فى بناء عقلية ابن سناء وذاكرته وكانت رافدا من روافد صوره الفنية.

---

(١) السابق، ص ٥٧.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٥٩.
(٣) أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى، طبقات الشافعية الكبرى، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة ١٩٩٢ ط٢ بتحقيق د.عبد الفتاح محمد الحلو، د.محمود محمد الطناحى، ج٩ ص ١٨٢.
(٤) السابق، ص ١٨٤ .

٤- علم الحديث:

ومن العلوم التى كان تدريسها شائعا فى مدارس الأيوبيين، علم الحديث وروايته ومصطلحه فلقد كان صلاح الدين – وهو المؤسس الحقيقى لدولة الأيوبيين – "شديد الكلف بعلوم الدين، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه الأئمة المشهورين، وكان يصحب معه أبناءه متنقلا بهم من مصر إلى الإسكندرية، ليغنم حياة الإمام الحافظ السلفى أو حياة غيره من الأئمة المعروفين كالشيخ تاج الدين المسعودى الذى كان السلطان مدة إقامته بالقاهرة يعين له ميقاتا لسماع الأحاديث النبوية عنه "(١)، وذلك لأن " البيئة التى تعنى بعلوم الدين يحتل الحديث مكان الصدارة ، ويستأثر منها بكل عناية "(٢).

وعلى الرغم من الاهتمام الشديد بالحديث ودراسته وحفظه؛ لم يتأثر ابن سناء الملك تأثراً كبيرا بمصطلحات الحديث وإدخالها فى صوره الفنية إلا قليلا بالنسبة إلى غيرها، ولعل السبب فى هذا بعد علم مصطلح الحديث عن الشعر ومقاصده؛ أما بالنسبة للتأثر بالحديث نفسه ونصوصه فقد تأثر به تأثرا كبيرا وضمن كثيرا من الأحاديث فى ثنايا شعره .

فألفاظ دارسى الحديث واصطلاحاتهم ، هى التى ظهرت بقلة عند ابن سناء الملك إذا قيست إلى النحو والفقه مثلا ومن ذلك قوله(٣):

رحلوا وقد فتحوا ولـــ ـــكن فى فم العين الســداده
فخذوا الحديث عــن المــدا مع فهى تروى عــن قتــاده

فالرواية والحديث وأخذه عن فلان ، من اصطلاحات دارسي الحديث وقتادة "هوالتابعى المشهور الذى يروى عن أنس بن مالك رضى الله عنهما"(٤).

---

(١) د. عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى، دار الفكر العربى ط٨ ١٩٦٨ ص ١٤٩ .
(٢) السابق، ص١٧٥، ولقد خصص الدكتور عبد اللطيف حمزة الكتاب الثالث من المرجع المشار إليه للحديث عن حالة دراسة التفسير والحديث النبوى ومدارسهما فى العصر الأيوبى فليرجع إليه من أراد المزيد .
(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٠٦.
(٤) السابق، هامش ص ١٠٦.

ولا شك فى أن الصورة وموطنها موطن الحديث عن الفراق والدموع التى تصاحبه تتخذ فى البعد العقلى شوطا إذ يصبح الفراق أو الرحيل كأنه الأداة التى يفتح بها فم السقاة أو المزْدة وهذا موطن يكثر فيه تشبيه العيون بالكلى قال ذو الرمة(١):

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

ولكن ابن سناء الملك يجعل دموع عيونه كأنه حديث تتحدث به العيون، ثم يتجانس فى ذهنه الرؤية للحديث والرى لماء المزْدة فيجعل ماء المزْدة حديثا، ثم بدلا من كونه يروى العطش يجعله يروى على الألسنة، فتتسلل الصورة من موطنها لتغشى وطنا آخر تستقر فيه وتتشبه به وهو موطن رؤية الحديث، لتصبح العين وقد وخزتها "قتادة "أى شوكة فنزل منها الدمع تشبه الحديث الذى يرويه التابعى قتادة رضى الله عنه بجامع الشفاء فى الحديث، والسببية فى الراوى والقيمة الغالية لكل من الدمع والحديث.

وإذا كانت دموع عينه تروى عن قتادة فإن هناك عالما من علماء الحديث تخبر عنه نار قلبه فيورى به وهو شهاب(٢):

فنار القلب تخبر عن شهاب ودمع العين يروى عن قتادة

وما فى البيت من التأثر واضح، وأما فى قوله (٣):

زارنى طيفها محلى معطر وتخطى كمثلها وتخطر

وحكاها فكان فى النقل عدلا حين أدى عنها وإن كان زوّر

فهو يتأثر بعلم الجرح والتعديل، فى المحدثين وصورته هنا ترسم لنا صورة الطيف الذى جاء بشيء من حبيبته وحكى عنها بعض القول، فنقل عنها الاعتدال والعطر والتخطر فى المشية ولكنه زور فى الحديث، فأخذ من علم الجرح والتعديل: النقل – العدل الأداء –

(١) ذو الرمة، ديوانه، بشرح وتعليق زهير فتح الله، ط: أولى، ١٩٩٥، دار صادر للطباعة والنشر بيروت،٥٩.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٣٧٩ وشهاب هو شهاب الزهرى المشهور بابن شهاب، من أجلة علماء الحديث.
(٣) السابق، ص ١٤٥.

التزوير، وألقى بصورته أو غمسها فى وجدانه الذى يشكل الحديث النبوى ودراسته جانبا منه ومن ثقافة صاحبه.

والحديث، والرواة، من اصطلاحات دارسي الحديث ولكنهما قد تسللا إلى الصورة الآتية فى مضمار الغزل (١):

وأعشق من قد شاع عن سكر قده حديث تثنى عطفه عن رواته

وورود هذه الألفاظ فى صورة موطنها الغزل يدل على تأثره بعلم الحديث ومن مثل ذلك قوله(٢):

ومر بى يروى حديث الأسى فاسمع بعينيك الذى قد روى

وقوله(٣):

وآها على الخصر الرقيق وإنما قطع الحديث حديثه الموثوق

٥- علم الفلك :

كان علم الفلك ضمن مجموعة من العلوم كالفلسفة والمنطق والرياضيات يطلق عليها علوم الأوائل وتوضع فى مقابلة علوم العرب أو العلوم الشرعية خاصة(٤) ، وعلم الفلك من العلوم التى اهتم بها العلماء المسلمون ، ومن يرجع إلى الكتب التى صنفت فى أسماء العلوم مثل الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجى خليفة وأبجد العلوم يدرك كيف كان اهتمام المسلمين بعلم الفلك والنجوم(٥).

ولعل اهتمام الفاطميين بالتنجيم كان أكبر من اهتمام غيرهم به لأن دولة الفاطميين قامت على كثير من الأمور الغيبية فى معتقداتها ، ولعل ما بقى من اهتمام الناس بالتنجيم

(١) السابق، ص ٣٧١.
(٢) السابق، ص ٥٣٤.
(٣) السابق، ص ٢٠٦.
(٤) د. عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، هامش١ ص ٣٣٣.
(٥) ينظر حاجي خليفة، في كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت ج١ ص ١٠٦، ، ج٢ ص ١٦٤٢، وابن النديم في الفهرست، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨ج١ ص ٢٨٨.

فى عصر الأيوبيين هو بقايا معتقدات الناس أيام الفاطميين تلك المعتقدات التى حاربتها الدولة الأيوبية السنية بكل ما تستطيع .

فقد كان للناس ولع شديد بالتنجيم ، ومن يقرأ الرسالة المصرية لأمية ابن أبي الصلت يتعرف على تعلق المصريين بالنجوم والمنجمين فى ذلك الوقت ، يقول أمية:"والمصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلا عليها وشغفا بها وسكونا إليها حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تنحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ، ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تعدّ ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ونصب يعتمدونها"(١) .

وبقيت بقية من تلك الصفة إلى أيام ابن سناء الملك لأن الثقافات لا تنتهى فجأة كما لا تأتى بغتة ، بل تأتى متسللة وتنسحب فى هدوء ، فلقد جاء ابن أبي الصلت هذا إلى مصر عام ٥٠٦ هـ أى قبل عصر الأيوبيين بستين عاما تقريبا حيث بدأ عصر الأيوبيين بموت العاضد الفاطمى وتولى صلاح الدين مصر عام ٥٦٧.

ظلت ثقافة النجوم والمنجمين وأحكام النجوم والطوالع والزيجات حتى عصر ابن سناء الملك؛ ولذا وجدنا آثار تلك الثقافة تبرز بكثرة فى صوره الفنية؛ من مثل ذلك قوله فى مدح المظفر تقى الدين(٢):

ويجلو له البدر المنير مسالكا	فيسهل منها كل مستوعر صعب
ويسعده البرجيس فى السلم مثلما	يساعده المريخ فى حومة الحرب
وينحس " كيوان " بلاد عدوه	ويعجله بالسل منها وبالسلب
ويفتح ديوان السماء عطارد	لإنشاء أخبار البشائر والكتب
وما الزهرة الزهراء إلا مليئة	ببعث سرور النصر للنفس والقلب

فالبرجيس هو المشترى وهو كوكب السعد، والمريخ يساعده فى الحرب و"كيوان" وهو زحل الذى هو كوكب النحس، ينحس له عدوه ويساعده نحسهم على سلبهم وسل السيوف

(١) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز أبي الصلت، الرسالة المصرية، ضمن نوادر المخطوطات جمع وتقديم الأستاذ عبد السلام هارون وتقديم أ.د محمد زغلول سلام العدد ٧٠ من سلسلة الذخائر،الهيئة العامة لقصور الثقافةص ٤٥.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٤٥.

عليهم، وأما عطارد الكوكب المعروف من المجموعة الشمسية فهو يبشر بخبر السماء عن انتصاراته، وكذلك الزهرة وتلك صورة فنية فلكية – إن صح التعبير- لما بها من أسماء الكواكب وأعمالها فى معتقدات البشر فى ذلك العصر.

والتنجيم إذا كان لصالح الممدوحين فالشاعر يمتن له ويوافقه، وأما إذا كان بغير ما يريد الممدوح فالشاعر يرمى المنجمين بالكذب والتحريف وهذا هو السائد الشائع فى دولة الأيوبيين السنيّة يقول ابن سناء الملك ردا على المنجمين (١):

وهذا هو القول المحقق لا الذى ... يحرفه أهل النجوم من الكذب

وأسماء النجوم لا تزال تقتحم صور ابن سناء إذ يقول مادحا (٢):

لو رامت الشمس المنيرة شأوه ... يوم الفخار لعاقها العيوق

والعيوق هو نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها، فهو ينقل المفاخرة من مجالها الأرضى إلى مجال فضائي بين نجمين هما ممدوحه الذى يجعل مكانه دائما فى السماء وبين الأفلاك والكواكب والنجوم والشمس التى هى أبرز ما يراه أهل الأرض من النجوم والعيوق الذي سيقف حائلا دون الشمس لو أرادت أن تفاخر هذا الممدوح؛ فإذا تعارضت أحكام النجوم مع أحكام الممدوح (الحاكم) فإن حكمه على أحكامها يعلو ويبطل ما يدعيه المنجمون يقول: (٣)

سعودك ردت ما ادعاه المنجم ... وقد كذبته في الذي كان يزعم
يبشر بالريح العقيم وإنها ... كما قال –عما قاله- بك تعقم
ويقسم أن الأمر لابد كائن ... وبالأمر قد أحنثته حين يقسم
وجودك أمن للوجود من الذي ... عن الريح يحكي أو به النجم يحكم
وقد قيل أحكام النجوم على الورى ... وأنت على أحكامها تتحكم
وما برحت حباً تود لو انها ... لناديك تهوى أو لتربك تلثم

(١) السابق، ص ١٠ .
(٢) السابق، ص ١٤٥.
(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٢٩٠.

وأنت الذي .. وهي التي في سمائها تشير إليها من بعيد فتفهم
ويلدغ فيها من يعاديك عقرب ويفرس فيها من يدانيك ضيغم
وتحنى لك القوس التي من بروجها فترمى بها الأعداء والشهب أسهم
ولو شئت كانت من هباتك إنما لك الشمس دينار لك البدر درهم

فالنجوم والأبراج التى تسبح فى أفلاكها داخلة ضمن رعايا الممدوح "صلاح الدين" بل هى من جنوده، ألا ترى العقرب يلدغ عدوه، والأسد يفترس من يدنو منه، والقوس تنحني له ليرمي بها أعداءه؟؛ بل لو شاء لكانت هذه الأفلاك من هباته، يهبها من يشاء من معتفيه، لكن الشاعر ينعي على الناس تصديقهم للنجوم وينعي على المنجمين ويدعو عليهم قائلاً :(١)

فسحقاً لعباد النجوم أما دروا بأنك أعلى بالمكان وأعلم
وبعداً لخدام النجوم أما دروا بأنك أقوى بالمكان وأقوم
وما خدموا الأفلاك إلا لأنها تعلمه والسعد لا يتعلم

فلقد كذبت الحقائق التاريخية والواقعية ما قاله المنجمون وخوفوا منه الناس في عام ٥٨٢.(٢)

ومن الألفاظ التي تدل على تصديق النجوم: الإسعاد والسعود والسعد، كقوله:(٣)

ولعمري مذ طالعتني بإسعا دٍ معاليك طالعتني السعود
إن حالي بئر معطلة من قبل والآن فهي قصر مشيد

ومثله قوله:(٤)

ولعمري لو طالعتني بإسعاد أياديك طالعتني السعود

وقوله:(٥)

---

(١) السابق، ص٢٩١.
(٢) "كان المنجمون فى هذه السنة يحكمون بخراب العالم فى شعبان عند اجتماع الكواكب الستة فى الميزان بطوفان الريح فى سائر البلدان .. فلما كانت الليلة التى عينها المنجمون ونحن جلوس عند السلطان فى فضاء واسع ونار الشموع المزهرات جامع ، .. ولم يظهر مما قالوا شيء وعمل الشعراء فى ذلك شعرا يزرون عليهم فى حكمهم " الروضتين فى أخبار الدولتين، لأبي شامة شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي، دارالكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م ج٣ ص ١٧٠ .
(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٨٤.
(٤) السابق، ص ١٠١ .
(٥) السابق، ص ٢٦٧ ومفردة السعد والسعود تتكرر عنده فوق العشرين مرة.

هلال ولكـــن الســـعود منازلـــه ونهر ولكن البحار جداولـــه

وقوله:(١)

لقد وعدت نجوم السعد طالعـــة فينا ومثلك من أوفى بما وعدا

وقوله:(٢)

أجـــــرت علـــــيّ نجـــــوم أر ضـــك فـــي الهـــوى أحكامهـــا

وهكذا يتبين أن المجتمع الأيوبي كان فيه من يصدق النجوم ويأتي العرافين وإن كانت سياسة الدولة قد قامت على مقاومة هذا التيار الذي يناقض السنة، ويدعو إلى التواكل والتخلف،وكان لهذا سبب كبير في تقدم المجتمع الأيوبي علمياً، وسياسيا وقد نقل صاحب الروضتين عن العماد الكاتب قوله فى صلاح الدين:"كان يأخذ بالشرع ويعطى به، ولم يكن للمنجم مصغيا، ولم يزل لقوله ملغيا، ولا يتعيف، ولا يتطير، ولا يعين ولا يتخير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع "(٣).

المطلب الثانى، علوم العصر وأثرها فى صور البهاء زهير:

تكاد الروافد والمؤثرات لا تختلف عند البهاء زهير عما كانت عليه عند ابن سناء الملك فلقد كان الشاعران ربيبي عصر واحد وثقافة واحدة، درسا العلوم نفسها وتأثر كل منهما بما تأثر به الآخر، فما اختلفا إلا فى مقدار ما حصل كل منهما، وفى درجة التأثر بما حصل، من المعلومات التى استوعبها من معطيات عصره.

فإذا نظرنا إلى العلوم الشرعية نجد البهاء قد ألم بها حفظا ودرسا كصنو؛ ابن سناء الملك، غير أن البهاء كان يختلف عنه فى درجة الثقافة نفسها إذ تثبت الأدلة من

(١) السابق، ص ٢٦٠.
(٢) السابق، ص ٢٨٦ .
(٣) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي، الروضتين، ج٤ ص٢٢٣.

شعريهما أن ابن سناء الملك كان أوسع ثقافة وأكثر إلماما بالعلوم من البهاء، وفيما يلى نستعرض تأثر البهاء بالعلوم التى تأثر بها ابن سناء الملك للوقوف على هذه الاختلافات.

١- النحـو:

ظهرت أثار العلوم الشرعية العربية فى شعر البهاء ومنها علم النحو الذى ظهرت مصطلحاته فى صوره الفنية؛ وذلك كالأفعال والأسماء فى قوله:(١)

وَصَيَّرَ لي ذِكراً جَميلاً لأَنَّني أُحَسِّنُ أَفعالي لتسمعَ أَسمائي

فأنت ترى المطابقة بين الأفعال والأسماء، وهو يورى بالأفعال عن سلوكه وتعاملاته ويورى بالأسماء عن محبوبة اسمها أسماء وأظنها رمزاً للممدوح، الذى يرجو عنده الخير.

ومن مصطلحات النحو التى ظهرت فى شعره: الاسم والكنية واللقب، وذلك فى موضع لطيف يتغزل فيه حيث يقول:(٢)

أَشِر لي بِوَصفٍ واحِدٍ مِن صِفاتِهِ تَكُن مِثلَ مَن سَمّى وكَنّى ولَقَّبا

فالاسم والكنية واللقب مما يختص به دارسو النحو، من حيث إن لهذه المصطلحات حدودا وتعاريف بعينها، وهناك مسألة خاصة بجواز تقديم أيها على الآخر(٣).

ومن مصطلحات علم النحو التى أحسن الشاعر استخدامها والتورية بها فى مقام المدح "الاسم الموصول، والصلة والعائد"، كما فى قوله:(٤)

فَمُت كَمَداً يا حاسِدي فَأَنا الَّذي لَهُ صِلَةٌ مِمَّن يُحِبُّ وَعائِدُ

فتأمل كيف وظف الشاعر المصطلحين "الصلة والعائد" فى الصورة الفنية هنا حيث ورى بهما عن العطاء الراتب أو "الدخل الثابت " كما نقول نحن اليوم.

---

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٧.
(٢) السابق، ص ٢٨.
(٣) وهذا الموضوع مبسوط فى كتب النحو ينظر مثلا: شرح شذور الذهب،لابن هشام الأنصاري، بتحقيق عبدالغنى الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق ط، أولى، ١٩٨٤، ج١/ ٨٠ .وكذا شرح ابن عقيل بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢ دار الفكر دمشق ١٩٨٥ج١/١١٩.
(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٨٢.

وهذان المصطلحان لما فيهما من لطف التورية يستخدمهما الشاعر فى مواطن متفرقة من مدائحه كما فى قوله:(١)

يَقولونَ لي أَنتَ الَّذي سارَ ذِكرُهُ فَمِن صادِرٍ يُثني عَلَيهِ وَوارِدِ
هَبوني كَما قَد تَزعَمونَ أَنا الَّذي فَأَينَ صِلاتي مِنكُمُ وَعَوائِدي

وقوله: (٢)

وَهُنِّئتَ أَبناءً كِراماً أَعِزَّةً رَأَيتَ لَهُم مِثلَ الضَراغِمِ أَشبُلا
صِلاتُهُمُ في الجودِ أَضحَت عَوائِداً وَسائِلُهُم في الناسِ لَن يَتَوَسَّلا

ومن ذلك قوله: (٣)

جَعَلتُكُم خَبَري في الحُبِّ مُبتَدِئاً وَكُلُّ مَعرِفَةٍ لِيَ في الهَوى نَكِرَه

ويتكرر عنده مصطلح المعرفة والنكرة فى قوله: (٤)

لَستُ أَرضى لِحَبيبي أَنَّهُ لِلناسِ يُذكَر
وَهوَ مَعروفٌ وَلَكِن هُوَ مَعروفٌ مُنَكَّر

ومنه أيضا قوله: (٥)

صَحِبتُهُ وَلَم يَكُن نَظيري قَدَّمتُهُ وَهُوَ يَرى تَأخيري

ومما يتصل بعلم النحو علم الصرف ومصطلحاته ولعلهما لم يكونا قد انفصلا بعد، فمن مصطلحات علم الصرف التى وردت فى شعره مصطلح "التصغير" و"التكثير" فى قوله: (٦)

نَقَصتُ إِذ جَعَلتُهُ تكثيري كَما تُزادُ الياءُ في التَصغيرِ

---

(١) السابق، ص ٨٤.
(٢) السابق، ص ٢٠١.
(٣) السابق، ص ٩١.
(٤) السابق، ص ١٠٩.
(٥) السابق، ص ٩٢.
(٦) البهاء زهير، ديوانه، ص ٩٢.

ومن المصطلحات كذلك أنواع الفعل وتقسيمه من حيث الزمان إلى مستقبل وماض فالشاعر يورى بهذه المصطلحات كما فى قوله: (١)

أَمَلي فيكَ دونَهُ سَيفُ لَحظٍ ذاكَ مُستَقبَلٌ وَهَذاكَ ماضي

فالأمل مستقبل ، والسيف ماض بمعنى قاطع.

وكذا باب العطف وحروفه ينقلهما الشاعر من النحو إلى الغزل فالواو هنا واو الصدغ وهى الخصلة الملتوية على خد الفتاة ، وهو يطلب من هذه الواو إذ أشبهت واو العطف أن تعطف محبوبه عليه حيث يقول: (٢)

عَسى عَطفَةً لِلوَصلِ يا واوَ صُدغِهِ عَلَيَّ فَإِنّي أَعرِفُ الواوَ تَعطِفُ

وكما طلب من الواو أن تعطفه يطلب من الألف أن تكون ألف وصل فتصله بحبيبته ثم يطلب منها أن تحذف من بينهما كما تحذف ألف الوصل هذه فى النطق أو فى الخط العروضى يقول: (٣)

يا أَلِفاً مِن قَدِّهِ أَقبَلَت بِاللَهِ كوني أَلِفَ الوَصلِ

والملاحظ أن ابن سناء أكثر تأثرا بالنحو ومسائله؛ من البهاء زهير؛ فظهور النحو عنده أكثر فى الصور الفنية، حيث إنه ورى بأسماء كتب كالكامل للمبرد، وهذا غير موجود فى شعر البهاء، وكذلك بالمعرب والمبنى، والحرف المشدد، والنعت والإضافة، وإن كان البهاء أحسن توظيفا للتورية بهذه المصطلحات فى الشعر لأنك لا تكاد تظنه يريد المصطلح النحوي.

٢- الفقه:

ومن العلوم الشرعية التى تأثر بها البهاء زهير كما تأثر بها ابن سناء الملك علم الفقه الذى عرفه ومارسه دراسة وعملا وتأثر به فى صياغة صوره الفنية فى شعره؛ من نحو قوله: (٤)

أَأَحبابَنا إِنَّ المَشيبَ لَشارِعٌ سَيَنسَخُ أَحكامَ الصَبابَةِ وَالصِبا

---

(١) السابق، ص ١٤٨.
(٢) السابق، ص ١٦٥.
(٣) السابق، ص ٢١١.
(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٣٢.

و"الناسخ والمنسوخ من أجل المباحث فى علوم القرآن وعلوم الحديث وعلم أصول الفقه وله صلة كبرى بالتشريع"(١) والشارع، والنسخ، والأحكام: من ألفاظ الفقهاء، حيث إن الشارع يقصد به الله عزوجل، الذي يشرع الشرع وينزل الكتاب وينسخ الأحكام والشاعر يشبه المشيب بالشارع فى عملية النسخ لأنه ينسخ (أحكام الشباب) ويعنى بها ما يصاحبه من اللهو واللعب، وإن كان الكاتب لا يقر البهاء على هذا التشبيه، فلا يجوز أن يشبه المشيب بالشارع، وكان يمكن أن يأتى لفعل النسخ بأى ناسخ كنسخ الشمس الظل، أو نسخ "إن" حكم المبتدأ.

وموضوع الناسخ والمنسوخ، ونسخ القرآن بالسنة والسنة بالقرآن باب واسع من أبواب علوم القرآن؛ مما يبدو أن الشاعر قد ألم بطرف منه وتأثر به حيث يقول أيضا: (٢)

أَبَداً حَديثي لَيسَ بِال مَنسوخِ إلاّ في الدَفاتِر

وهى تورية، فالحديث يمكن أن يراد به: الحديث النبوي الشريف، غير أن الشاعر يقصد الحديث بمعنى الكلام المعهود عند الناس، و"المنسوخ" يحتمل أن يكون بمعنى المزل الذى أزيل حكمه أو بطل العمل به، ويمكن أن يكون "المنسوخ" بمعنى المنقول كتابة على الورق.

ومن المسائل الفقهية مسألة قراءة القرآن من ذى الجنابة(٣)، فالقرآن الكريم تمتنع قراءته على الجنب حتى يطهر؛ إذ الطهارة شرط فى مس المصحف، والبهاء عندما أراد أن يصف عبور صاحبه وعدم تعريجه عليه استلهم هذه الصورة من دروس الفقه حيث يقول: (٤)

وَكُنتُ كَسورَةِ الإخلاصِ لَمّا عَبرتَ وَكُنتَ أَنتَ كَذي جَنابَه

فقد شبه نفسه بسورة الإخلاص وشبه الذى أشاح بوجهه عنه بذى الجنابة.

---

(١) القاضى أبي بكر ابن العربي، الناسخ والمنسوخ، فى القرآن الكريم، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، منشورات محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ط أولى ١٩٩٧ ص ٣.

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص١٢٤.

(٣) المسألة مبسوطة فى كتب الفقه وقد عرضها الإمام القرطبي بالتفصيل فى تفسير قوله تعالى:"لا يمسه إلا المطهرون" من سورة الواقعة وذلك فى تفسير القرطبي،الجامع لأحكام القرآن الكريم، طبعة دار الشعب، القاهرة، ط ٢، بتحقيق أحمد عبد العليم البردوني، ج١٧ ص ٢٢٧.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٣٥.

ومن الأمور التى يعرفها طلاب العلم الشروح والمختصرات وتلك وإن كانت لا تختص بالفقه دون غيره فقد أثبته فى الفقه من باب التغليب، يقول البهاء: (١)

وَأَعينٌ عِندَ التَشاكي طافِحَه إذا اِختَصَرنا فَالدُموعُ شارِحَه

فالعيون تشرح ما يمكن أن يختصر من الكلام ساعة الوداع، لأن المقام ضيق والكلام قليل ولكن لغة العيون تشرح بإسهاب ما يمكن أن يكون مختزلا فى النفس من الكلام والشروح والمختصرات كانت ظاهرة علمية تميز بها عصر الأيوبيين والمماليك من بعدهم حيث جمعت كتب السلف وقتلت دراسة وتفسيرا واختصارا فكانت الكتب يصنع عليها حواش، وتصنع على الحواشي تعليقات، وتقريظات، وذلك أمر معروف فى هذا العصر ومن تأثره بقراءة الشروح والمختصرات أيضا قوله: (٢)

ولَم أَنَل مِنكُمُ شَيئاً سِوى تُهَمٍ نُقالُ مَشروحَةً فينا وَمُختَصَرَه

ومن دروس الفقه أيضا وجوب الغسل على ذى الجنابة، وتأمل كيف أوجب الشاعر الغسل من سماع كلام حبيبته التى يتغزل فيها حيث يقول: (٣)

ولَفظٍ يوجِبُ الغَسلَ عَلى السامِعِ وَالحَدّا

فتأمل كيف يوجب سماع كلامها الغسل والحد..؟! ؛ ومن ألفاظ الفقهاء وعباراتهم "مسألة فيها نظر"، ولقد تأثر الشاعر بعباراتهم، مما يدل على مدارسته وقراءته للفقه، وذلك حيث يقول: (٤)

فَدَعني مِمّا يَقولُ الوُشا ةُ فَتِلكَ الأَقاويلُ فيها نَظَر

فأقوال الوشاة لا ينبغى أن يؤخذ بها، وإن أخذ بها فلا ينبغى أن تزيد على كونها مسائل خلافية فيها نظر كمسألة حكم فيها فقيه؛ ولكن فقيها آخر كان له رأى يبطل أو يرجح رأى ذاك الفقيه؛ ومن دروس الفقه وأبوابه"باب اليمين"حيث تنقسم اليمين إلى

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٥٩.
(٢) السابق، ص ٩١.
(٣) السابق، ص ٦٩.
(٤) السابق، ص ١٢٦.

أربعة أقسام: هى البر والحنث واللغو والغموس، وقد وجد فى شعر البهاء ما يدل على هذا التأثر حيث يقول البهاء:(١)

حَلَفتُ لَكُم يَومَ النَوى وَحَلَفتُمُ بِكُلِّ يَمينٍ لِلمُحِبِّ غَموسِ(٢)

واليمين من الأمور التى لها حضور دائم فى نفس البهاء وشخصيته فهو كثير الحلف فى المواقف المختلفة، من مثل قوله :" واللّه، وحقك، وحياتك، وعيشك وعينيك .. إلخ".

ومن مصطلحات أصول الفقه: الفرض، والسنة وهما من دروس الفقه المعروفة وقد تأثر الشاعر بذلك فى قوله: (٣)

وَلِلناسِ عاداتٌ وَقَد أَلِفوا بِها لَها سُنَنٌ يَرعَونَها وَفُروضُ

ويشبه الشاعر التقديم للمدح بالغزل الرقيق، بالنفل قبل الفرض إذ يقول:(٤)

مَهَّدتُ بِالغَزَلِ الرَقيقِ لِمَدحِهِ وَأَرَدتُ قَبلَ الفَرضِ أَن أَتَنَفَّلا

٣- الحـديث:

والحديث من العلوم التى كانت على أيامهم ما تزال تدرس فى المساجد والحلقات العلمية وما زال طلاب العلم يتدارسونه؛ لأنه يصلهم برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقد ألم الشاعر على بقسط وافر من دراسة الحديث، فتأثر بمصطلحاته كما فى قوله: (٥)

يَروي النَدى أَبَداً فَلا يُروى لَهُم إِلا صَحيحُه

فالرواية، وصحتها من مصطلحات الحديث (٦). ومن ذلك قوله: (٧)

---

(١) السابق، ص ١٤٤.

(٢) "عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمس ليس لهن كفارة الشرك بالله وقتل النفس بغير حق وبهت مؤمن والفرار يوم الزحف ويمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق" وهى الغموس التى سأل عنها سيدنا عبد الله بن عمر فى رواية أخرى رسول الله :"وما اليمين الغموس قال الذي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب" ينظر نيل الأوطار للشوكاني، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٣ ج٩ص ١٣٢ .

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٤٩.

(٤) السابق، ص ٢٢٥.

(٥) السابق، ص ٥٦.

(٦) "الحديث الصحيح ما سلم لفظه من ركاكة ومعناه من مخالفة آية أو خبر متواتر أو إجماع وكان رواية عدل وفي مقابله السقيم" ينظر: التعريفات، على بن محمد بن على الجرجاني، بتحقيق إبراهيم الإبيارى دار الكتاب العربي،بيروت،١٤٠٥هـ ج١/١١٣.

(٧) البهاء زهير، ديوانه، ص ٦١.

حَياتي وَصَبري مُذ هَجَرتُم كِلاهُما غَريبٌ وَدَمعي لِلغَريبَينِ يَشرَحُ

فحياته غريبة ووجه غرابتها استمرارها بعد رحيل أحبته، وصبره أيضا غريب فمثل هذا الموقف لا يصبر عليه، وبما أنهما غريبان، فهما يحتاجان لشرح والدمع هو الذي يتولى ذلك، فتأمل كيف سحب الشاعر الغرابة من مدلولها المعروف لدى الناس جميعا إلى ما هو خاص بدارسي مصطلح الحديث(١).

ومن تأثره بالحديث ومصطلحه أيضا قوله:(٢)

وَقَد شَهِدَ المِسواكُ عِندي بِطيبِهِ وَلَم أَرَ عَدلاً وَهوَ سَكرانُ يَطفَحُ

فهو يستخدم هنا لفظ "عدل"(٣) والعدالة من مصطلحات " علم الرجال" أو "الجرح والتعديل" وهو أيضا داخل فى المصطلحات الخاصة بدارسي الحديث، فالسواك عدل أى معدول مستقيم ليس فيه عوج من الناحية الشكلية، ولكن الشاعر لما تخيله شاهدا على طيب فم محبوبته، جعل استقامته وعدالته ليست فى شكله بوصفه سواكا ولكن فى خلقه بوصفه شاهدا، ثم أحدث الشاعر المفارقة بادعاء الاستغراب من كون المسواك عدلا مستقيم الخلق مع كونه سكرا، والواضح أن سكر المسواك من خمر ريق حبيبته. ومن تأثره بمصطلح الحديث قوله: (٤)

وَأَضحى نَسيمُ الرَوضِ يَروي حَديثَنا فَيا رَبِّ لا تُسمَع وُشاةٌ وَحُسَّدُ

فالرواية للحديث معروفة ، وهو هنا يستعيرها أو قل يورى بها عن تسمع نسيم الروض لكلام العاشقين ، واختلاط الكلام بالنسيم ومازجته له، ثم سيرورته فيه، كأن

(١) "الغريب من الحديث ما يكون إسناده متصلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن يرويه واحد إما من التابعين أو من أتباع التابعين" ينظر: التعريفات، ٢٠٨/١.

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص ٦٢.

(٣) "العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وفي اصطلاح النحويين خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى وفي اصطلاح الفقهاء من اجتنب الكبائر ولم يصر على الصغائر وغلب صوابه واجتنب الأفعال الخسيسة كالأكل في الطريق والبول على قارعتها" ينظر: التعريفات ١٩١/١.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٨٥.

كلامهما الحديث النبوي ، وكأن النسيم فى صدق أخذه وروايته راوٍ من رواة الحديث. ومن ذلك أيضا قوله: (١)

مَلِكٌ يُحَدِّثُ عَن أَبيهِ وَجَدِّهِ سَنَدٌ لَعَمرُكَ في العُلا لا يُلحَقُ

فالممدوح لما كان نسبه شريفا، ومجده وراثة، وذكره الطيب السيار فى الناس والبلاد مشابها لما كانت عليه سيرة آبائه وأجداده، صارت أفعاله وكأنها ترى للناس سيرتهم وتقص على الناس أحاديث مجدهم، وهذا الأمر متصل منه بهم صاعدا فصاعد فهو سند فى العلا لا يلحق؛ والشاعر لما أراد صدق التحديث فى صفاتهم وفعالهم، جعلها مروية على طريقة الحديث المسند الذى يتصل سنده بالنبي صلى الله عليه وسلم لكى لا يشكك فى صدق تحديث هذا الملك عنهم؛ ولذا استعمل الشاعر ألفاظ المحدثين مثل "يحدث عن " و"سند"(٢).

ومن ألفاظ الحديث التى وردت فى صور البهاء أيضا قوله: (٣)

ولِي فيهِ قَلبٌ بِالغَرامِ مُقَيَّدٌ لَهُ خَبَرٌ يَرويهِ دَمعِيَ مُطلَقا

فتأمل كيف جعل الشاعر قلبه مقيداً بغرامه ، لا يستطيع أن يفارقه إلى غيره، مما جعل هذا القلب يشتهر بحبه، فعرف خبره، والخبر يعد نقطة التحول فى البيت من الصورة الغرامية إلى الصورة الحديثية، حيث إن الشاعر لما قال "له خبر" انتقل فكره إلى أن الخبر لا بد له من راوٍ يرويه فكان أن تسللت صورة رواية الحديث لأنها أظهر فى كيفية الرواية والتحديث من غيرها من صور النقل، ثم كان هذا الراوي من النوع الذى لا يكذب عادة وهو الدموع؛ ومن ثم كان استعمال الشاعر كلمات: "مقيد" "خبر" يرويه" "مطلقا"(٤).

---

(١) السابق، ص ١٧٦.

(٢) "والسند:عبارة عن الرواة فمعرفة أحوالها نصف علم الحديث على ما لا يخفى" ينظر: أبجد العلوم صديق بن حسن القنوجي،بتحقيق عبد الجبار ذكار، بيروت ١٩٧٨، ج٢ص٦١ .

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٧٨.

(٤) "والمقيد هو الذى يقيد بحادثة معينة والمطلق ضده ويهتم بهذين النوعين من الحديث علم يقال له "علم تلفيق الحديث وهو علم يبحث فيه عن التوفيق بين الأحاديث المتنافية ظاهراً إما بتخصيص العام تارة أو بتقييد المطلق أخرى أو بالحمل على تعدد الحادثة إلى غير ذلك من وجوه التأويل" أبجد العلوم ٢٠٢/٢

ومن ألفاظهم التى وصف الشاعر بها قلبه أيضا مقيد ومسلسل كما فى قوله:(١)

القَلبُ فيكَ مُقَيَّـدٌ وَالدمعُ فيكَ مُسَلسَلُ

وهى صورة تكاد تكرر الصور السابقة لولا اختلاف المصطلح. ومن مصطلحاتهم التى وردت عنده أيضا "مسند" و"مسل" كما فى قوله:(٢)

يُروى حَديثُ الجودِ عَنهُ مُسنَداً فَعَلامَ تَرويهِ السَحائِبُ مُرسَلا

فالجود هنا يشبه الحديث المسند(٣) أى أنه متصل الإسناد بالممدوح، ولكن السحائب تروي عنه غيثا مرسلا، أى كثيرا متواصلا فتأمل.

وتأمل هذه الصورة كيف تتأثر تأثرا واضحا بعلم مصطلح الحديث، وكأنه يصنعها فى جو من دراسة الحديث ويتوجه بها إلى طلابه ودارسيه، يقول البهاء:(٤)

سَـلوا دَمعَ عَيني عَن أَحاديثِ لَوعَتي لِتُعرِبَ عَن تِلكَ الشُؤونِ شُـؤوني

فَـلِلدَمـعِ مِن عَـيني مَـعينٌ يَمُـدُّهُ فَإِن تَسـأَلوهُ تَسـأَلوا اِبنَ مَـعينِ

عَـلى أَنَّ دَمـعي لا يَـزالُ يَخونُني وَمَـن ذا الَّذي يَروي حَديثَ خَؤونِ

فَـلا تَقـبَلوا لِلدَمـعِ عَـنّي رِوايَـةً فَـلَيسَ عَلى سِرِّ الهَـوى بِأَمينِ

فتأمل كيف جعل الشاعر للوعة أحاديث، يرويها للناس دمعه، شؤونه عن شؤونه "وشؤون" الأولى بمعنى مجارى الدمع(٥) والثانية بمعنى الأحوال والخطوب، فالعروق التى يجرى فيها الدمع من الرأس إلى العين -كما هو فى لسان العرب- تمد العين بمعين لا ينضب

---

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢٠٧.

(٢) السابق، ص ٢٢٥.

(٣) المسند من الحديث خلاف المرسل وهو الذي اتصل إسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ثلاثة أقسام المتواتر والمشهور والآحاد" ينظر: التعريفات ١/ ٢٧٣؛ و"المرسل من الحديث: ما أسنده التابعي أو تبع التابعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابي الذي روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كما يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ينظر: التعريفات ٢٦٨/١.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٥) "والشَّأْنُ: مَجْرى الدَّمْع إلى العين، والجمع أَشْؤُن وشُؤون... الليث: الشُّؤُونُ عُروق الدُّموع من الرأْس إلى العين" اللسان مادة "شأن".

من الدموع، والمعين[1] فى هذا الجو المتأثر بالحديث جره إلى ذكر راو من رواة الحديث هو يحيى ابن معين[2]، فشبه به دمعه فى صدق تحديثه. فالدمع حين "يحدث عن" اللوعة كأنه "ابن معين" حين يروى حديثا نبويا، ولكن الشاعر يرجع عن ذلك إذ الدمع يسبق إرادة الإنسان فيبتدره مع الرغبة فى حبسه وتلك عادة أصحاب القلوب الرقيقة التى أودعها الله الرحمة والحنان، ولكن العادة جرت على وصف هذا الفعل من الدموع بالخيانة، فالخيانة هنا استعارة لنزول الدمع مع الرغبة فى كتمانه، ولكن الشاعر يأخذ الخيانة من معناها هذا إلى الخيانة المعهودة لدى دارسي الحديث وهى من التجريح الذى لا يؤخذ ممن يتصف به حديثا، ثم يقارن بين دمعه وخيانته وبين ابن معين وأمانته، ثم يستمر الشاعر فى عرض صورته وكأنه يلقى درسا فى مصطلح الحديث على نحو ما ترى.

٤- الفلك:

وكما تأثر ابن سناء الملك بعلم الفلك وظهرت فى صوره الفنية صور لكواكب ونجوم ومجرات، وظهر أثر اعتقاده فى النجوم سلبا برد ما يمكن أن يقال من تأثيرها فى حياة الناس أو إيجابا بوجود ما يؤيد اعتقاد الشاعر فى صدق ما يمكن أن يتحدث به المنجمون كذلك تأثر البهاء زهير بذلك مما يدل على أن هذا الأمر كان من المركبات الثقافية لهذا العصر وأنه قل أن لا يتأثر به أحد ، فقد ظهرت آثار علم الفلك، والتنجيم فى صور البهاء زهير الفنية من مثل قوله:[3]

وَتَفَرَّعَت لِلمَجدِ مِنكَ ثَلاثَـــةٌ كَثَلاثَةِ الجَوزاءِ في جَنَباتِهِ

---

(١) "والمَعِينُ: الماء السائل، وقيل: الجاري على وجه الأرض، وقيل: الماء العذب الغزير، وكل ذلك من السُّهولة" مادة "معن".

(٢) "يحيى بن معين بن عون الغطفاني البغدادي أحد الأئمة الأعلام. . . قال ابن المديني ما أعلم أحدا كتب ما كتب يحيى بن معين، وقال الخطيب كان إماما ربانيا عالما حافظا ثبتا متقنا وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجها ما عقلناه وقال عبيد الله القواريري قال لي يحيى القطان ما قدم علينا مثل هذين الرجلين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ربانيو الحديث أربعة فأعلمهم بالحلال والحرام أحمد بن حنبل وأحسنهم سياقا للحديث وأداء له علي بن المديني وأحسنهم وضعا لكتاب ابن أبي شيبة وأعلمهم بصحيح الحديث وسقيمه يحيى ابن معين مات بالمدينة سنة ثلاث ومائتين وحمل على سرير النبي صلى الله عليه وسلم، وله نحو سبع وسبعين سنة". ينظر: طبقات الحفاظ، للسوطي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط أولى، ١٤٠٣هـ ص ١٨٩.

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ٤٤، "وبهرام اسم المريخ وإياه عنى القائل أما ترى النجم قد تولى وهم بهرام بالأفول وقال حبيب بن أوس: له كبرياء المشتري وسعوده وسورة بهرام وظرف عطارد" مادة بهرم

مِـــن كُلِّ مَهدِيٍّ غَدا في مَهدِهِ يَسمـــو إِلى أَسلافِهِ بِسِماتِهِ
أَفضى إِلَيهِ المُشتَري بِسُعودِهِ وَأَعاذَهُ بَهرامُ مِن سَطَواتِهِ

وهو يقصد بالثلاثة أولاد الممدوح، وهو يشبههم فى تطوافهم حوله وانتظامهم بثلاثة الجوزاء التى يقال لها النظمة(١)؛ فهؤلاء الأولاد ورثوا المجد وتفرغوا له؛ فورود مثل هذه الأسماء يدل على أنه طاف بعلم الفلك وألم بشيء غير قليل منه؛ لأن الفلك والنجوم ومعرفة أحوالها ومنازلها؛ كانت من التركيبات الثقافية الشائعة أيام البهاء زهير بل منذ أيام الفاطميين كما ذكرت آنفا، ولعل الاستعارات التى يوقعها الشاعر على المشترى وبهرام تدل على إحساسه بحياة هذه الكواكب فى نفسه.

ومما يدل على معرفته بالفلك أيضا تشبيهه لحبيبه فى تغيره وعدم استقراره على حال واحدة بالزهرة تارة وبالمريخ أخرى كما فى قوله:(٢)

هُوَ كَالزُهرَةِ وَالـــ مِرّيخِ في لينٍ وَشِدَّه

كما أن الشاعر يعرف حركات النجوم والكواكب، ويعرف المبطئ من السريع منها كما يدل على ذلك قوله:(٣)

وَما عَلى البَدرِ إِذا أَسرَعَ إِن أَبطا زُحَل

فليس على البدر من إثم فى إسراعه إذا أبطا زحل، ولعله يقصد بالبدر نفسه وبزحل غيره ممن يبطئ بهم الحظ عن أن ينالوا مثل ما نال.

والشاعر يصور ممدوحه فى حال عزمه واتقاد همته إذا ركب جواده للجهاد وصناعة المجد بأنه ظمآن يسرع إلى نهر المجرة ، وهو هنا يشبه المجرة بالنهر ويريد للممدوح شرابا منه لما فى ذلك من بعد الهمة وعلو صورة الممدوح وسمو الماء الذي ينبغى أن يشرب منه فما

(١) "والنظم الثريا على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ ... ابن الأعرابي: النظمة كواكب الثريا.الجوهري: يقال لثلاثة كواكب من الجوزاء نظم" اللسان مادة نظم".
(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص٦٨.
(٣) السابق، ص ٢١٢.

ينبغى له أن يشرب من ماء الأرض بل ينبغى له أن يشرب من ماء مخصوص هو النور الذى يشبه الماء فى نهر المجرة يقول الشاعر: (١)

وَإذا اِستَقَلَ عَلى الجَوادِ كَأَنَّهُ ظامٍ وَقَد ظَنَّ المَجَرَّةَ مَوردا

ومصر إذا عاد إليها الممدوح أشرقت أقطارها فإذا هى منيرة، ترسل أشعتها لتنير الدنيا من حولها حتى أنها لتنير المجرة ليجد شعاعها مطرحا فوق المجرة ، كما فى قول الشاعر: (٢)

وَقَد أَشرَقَت أَقطارُها فَاِغتَدى لَها شُعاعٌ لَهُ فَوقَ المَجَرَّةِ مَطرَحُ

ولعلك تلاحظ كيف جعل مصر هى الأعلى من المجرة بهذه الصورة حيث إن الشعاع يسير من الأعلى إلى الأسفل ويهبط من المنير على المظلم ، فكأن المجرة نفسها مظلمة أضاءتها مصر.

كما أن همة الشاعر فى علوها وبعدها أعلى من زحل "وكيوان زحل"، حتى أن النجم إذا أراد أن يلحقها تحير لعلوها وارتفاعها عنه كما يقول البهاء زهير: (٣)

ذو هِمَّةٍ كَيوانُ دونَ مَقامِها لَو رامَها النَجمُ المُنيرُ تَحَيَّرا

فقد رأيت كيف يجعل ممدوحه فى هذه الصورة العلوية، وهذا ومثله قليل عند البهاء ولكنه كثير كثرة الرمل عند ابن سناء الملك، الذى يعتمد على الصورة الفلكية اعتمادا كبيرا فى أخذ صوره الفنية منها.

إذا كان البهاء زهير قد تأثر بالفلك، فإن مما يرتبط بالفلك ارتباطا وثيقا ما يتعلق بالتفاؤل والتشاؤم والسعد والنحس ، وما إلى ذلك من قراءة الطوالع التى تعتمد على النجوم وبيان ارتباط سعد الإنسان ونحسه بحركة النجوم وهذا النوع من المعرفة كان شائعا كما قلنا قبل الأيوبيين بشكل كبير، ولكن الأيوبيين السنيين قضوا نسبيا على هذه المعتقدات فقد كان صلاح الدين وهو رئيسهم لا يعول على النجوم كما ذكرت من قبل.

وقد ظهر شيء من أثر هذه الثقافة على البهاء زهير وصوره الفنية كما فى قوله: (٤)

وَلي لَيلَةٌ طَرَقَت بِالسُعودِ فَحَدِّث بِما شِئتَ عَن لَيلَتي

---

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٧١.
(٢) السابق، ص ٦٤.
(٣) السابق، ص ٩٨.
(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٤٦.

فليلته مطروقة بالسعود ، تطلع نجومها وكواكبها من مطالع السعد، والشاعر متفائل.

ومن ذلك أيضا قوله:(١)

أنا بالفراق مروع أبدا ذا طالعي منه وذا نجمي

وقوله:(٢) يا قَمَراً مُنذُ غابَ عَنّي لَم يَتَّصِل بِالسُعودِ نَجمي

فهو يربط حظه العاثر بغياب قمره أى حبيبته ، التى منذ رحلت لم يطلع نجمه من مطالع السعد، ومعروف أن ضد السعد النحس فما دام نجمه لم يتصل بالسعود فإن النحوس هى حظه، وفى ذلك كما ترى تعويل على النجوم .

ويقول البهاء عن دولة من الدول:(٣)

دَولَــةٌ كَم قَد سَأَلنا رَبَّنا التَعويضَ عَنها

وَفَرِحنا حينَ زالَت جاءَنا أَنحَسُ مِنهــا

وهذا الشعر سياسي فى مضمونه، ولكن الشاعر يربط زوال دولة أو قيام أخرى بالنجوم أيضا، فهى دولة نحس، والتى جاءت من بعدها أنحس منها .

ولعل الأدل على تأثره بالتنجيم واعتقاد الناس فيه وتسرب شيء من ذلك إلى البهاء زهير قوله:(٤)

بِلادٌ بِلُقياكَ اِستَقامَت نُجومُها فَصِرنَ سُعوداً بَعدَما كُنَّ نُحَّسا

ولكنى مع ذلك أزعم أن البهاء زهير كان تأثره بذلك لا يزيد على كونه مجاراة للواقع الاجتماعى ولم يكن له تأثير فى معتقده وإيمانه بالله تعالى وتوكله عليه، ولعلك تلاحظ شيئا من الكلفة فى ظهور هذه التأثيرات مما يدل على سطحيتها وعدم عمقها فى قلب الشاعر

(١) السابق، ص ٢٣٩.
(٢) السابق، ص ٢٣٤.
(٣) السابق، ص ٢٨٨.
(٤) السابق، ص ١٣٩.

وإيمانه، فهى فى المدح مجاملة وفى الغزل تظرف ودعابة؛ وربما كان رأيه الصادق فى مثل هذا الأمر قوله:(١)

لا تَرقُبِ النَجمَ في أَمرٍ تُحاوِلُهُ فَاللَهُ يَفعَلُ لا جَدِيٌ وَلا حَمَلُ
مَعَ السَعادَةِ ما لِلنَجمِ مِن أَثَرٍ فَلا يَغُرُّكَ مِرّيخٌ وَلا زُحَلُ
الأَمرُ أَعظَمُ وَالأَفكارُ حائِرَةٌ وَالشَرعُ يَصدُقُ وَالإِنسانُ يَمتَثِلُ

فهذا الكلام أدل على نفسية البهاء وعقيدته وفيه يظهر صدق عقيدته ، وصفاؤها وعدم اكترثه بالنجوم ، ولا اعتقاده بنفعها أو ضرها حتى أن هذا الصدق قد يخالطه فى الدعابة فى موطن الغزل عندم يصف حبيبته بأنها نجم ثم يطلب من نفسه – على سبيل التجريد- أن لا يصدقها لأن النجوم تغر ولا تصدق كما فى قوله:(٢)

وَلا يَغُرَّنَكَ مِنهُ حُسنُ مَنظَرِهِ فَقَد يُقالُ بِأَنَّ النَجمَ غَرّارُ

٥- النقد الأدبي:

وكما ظهرت قضايا النقد الأدبي عند ابن سناء الملك وتأثر بها ، فكذلك تأثر البهاء زهير بالنقد الأدبي وقضاياه ، ولكن الحق أن البهاء كان لا يأبه كثيرا بقضايا النقد الأدبي ولا يراها مجدية مع الطبع ولكنه على أية حال ألم بها قراءة واختار لنفسه منها ما يلائم طبعه وذوقه وظهرت آثار قراءته النقدية فى شعره من مثل قضية اللفظ والمعنى وملاءمة اللفظ للمقام ، كما يدل على ذلك قوله:(٣)

فَما كُلُّ لَفظٍ في خِطابِكَ يُرتَضى وَما كُلُّ مَعنىً في مَديحِكَ يَصلُحُ

وكذلك تقسيمه الكلام إلى نظم ونثر، وذلك شائع لدى النقاد والكتاب وهو أكثر فى بيئاتهم منه فى بيئات غيرهم كما فى قوله:(٤)

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢١٨.
(٢) السابق، ص ١١٣.
(٣) السابق، ص ٦٤.
(٤) السابق، ص ٩٩.

أَلا فَليَقُل ما شاءَ مَن هُوَ قائِلٌ وَدونَكَ هَذا مَوضِعُ النَظمِ وَالنَثرِ

ويرد فى شعره بعض المصطلحات النقدية مثل المثل السائر كما فى قوله: (١)

يا تارِكي في حُبِّهِ مَثَلاً مِنَ الأَمثالِ سائِر

ومن قضايا النقد التقديم للمدح بمقدمة غزلية وقد عرضت للكلام عنها فى هذا الموضع عند ابن سناء ، يقول البهاء زهير: (٢)

مَهَّدتُ بِالغَزَلِ الرَقيقِ لِمَدحِهِ وَأَرَدتُ قَبلَ الفَرضِ أَن أَتَنَفَّلا

وهو يعد المدح فرضا ويعد المقدمة الغزلية نفلا .

ومن المصطلحات النقدية التى عرفت عن قصائد زهير وأتباعه مصطلح "الحوليات" وظهر هذا المصطلح عند البهاء وهو يقارن بين شعره وبين شعر زهير ابن أبي سلمى ، فهما زهيران ولكن لكل منهما طريقته وأسلوبه، وإذا كان ابن أبي سلمى اختار الصنعة منهجا؛ فقد اختار البهاء الطبع، وإن صنع ابن أبي سلمى الحوليات؛ فقد ابتدع البهاء "الليليات" وجعلها فى مقابلة الحوليات حيث يقول: (٣)

دَعهُ وَحَولِيّاتِهِ ثُمَّ اِستَمِع لِزُهَيرِ عَصرِكَ حُسنَ لَيلِيّاتِهِ

ولعل فى هذا مؤشر يبين منهج البهاء فى صياغة القصيدة، فهو لا يتأخر في صناعتها عن ليلة واحدة ويعرض البهاء لحادثة نقدية فى قوله: (٤)

لَو أُنشِدَت في آلِ جَفنَةَ أَضرَبوا عَن ذِكرِ حَسّانٍ وَعَن جَفَناتِهِ

وحسان رضى الله هو ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر "جفناته" يشير به الشاعر إلى تلك الحادثة النقدية التى حدثت لسيدنا حسان ابن ثابت فى الجاهلية عندما حكم النابغة على قوله :

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

---

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٢٤.
(٢) السابق، ص ٢٢٥.
(٣) السابق، ص ٤٥.
(٤) السابق، ص ٤٥.

"فقال: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك وفي رواية أخرى فقال له إنك قلت الجفنات فقللت العدد ولو قلت:"الجفان" لكان أكثر وقلت: "يلمعن في الضحى" ولو قلت: "يبرقن بالدجى" لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا وقلت:"يقطرن من نجدة دما" فدللت على قلة القتل ولو قلت:" يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم وفخرت بمن ولت ولم تفخر بمن ولدك فقام حسان منكسرا منقطعا"(١).

٦- البلاغة:

وهذا العلم من العلوم التى انفرد البهاء بالتأثر به عن ابن سناء الملك، فلم نجد له أثرا كبيرا على ابن سناء الملك، من حيث ظهور المصلحات الخاصة به، ولكن الأمر عند البهاء كان غير ذلك فقد ظهرت مصطلحات علم البلاغة فى صورة الفنية من مثل قوله: (٢)

وَأَعجَبَني التَجنيسُ بَيني وَبَينَهُ فَلَمّا تَبَدّى أَشنَباً رُحتُ أَشيَبا

فالتجنيس مصطلح من مصطلحات علم البلاغة ، ولكن الشاعر استخدمه هنا بوصفه طرفا فى صورة فنيه، حيث جعل "الشنب" فى حبيبته مجانسا لـ"لشيب" فى شعره، وهى صورة شكلية صناعية ليس لها نصيب من طبع البهاء.

ومن ظهور مصطلحات البلاغة "البديع" فى قول البهاء : (٣)

لَكَ في فَضلِكَ المَحَلُّ الرَفيعُ لا يُجاريكَ في البَديعِ البَديعُ

فالبديع فرع من فروع علم البلاغة ، وهو هنا يستعمله ليجانس بينه وبين واحد ممن اشتهروا بالبديع فى كتاباتهم وهو بديع الزمان الهمذاني (٤).

---

(١) ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٣٤٨/٩.

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص ٣٢.

(٣) السابق، ص ١٥٨.

(٤) "بديع الزمان الهمذاني ٣٥٨ - ٣٩٨ هـ/ ٩٦٩ – ١٠٠٨ أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني أبوالفضل. أحد أئمة الكتاب له مقامات، .. وكان شاعراً وطبقته في الشعر دون طبقته في النثر.ولد في همذان وانتقل إلى هراة سنة ٣٨٠هـ فسكنها ثم ورد نيسابور سنة ٣٨٢هـ ولم تكن قد ذاعت شهرته.فلقي فيها أبا بكر الخوارزمي فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة فطار ذكر الهمذاني في الآفاق.ولما مات الخوارزمي خلا له الجو فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلا ودخلها ولا ملكاً أو أميراً إلا فاز بجوائزه. كان قوي الحافظة يضرب المثل بحفظه ويذكر أن أكثر مقاماته ارتجال وأنه كان ربما يكتب الكتاب مبتدئاً بآخر سطوره ثم هلم جراً إلى السطر الأول فيخرجه ولا عيب فيه.وفاته في هراة مسموماً. وله (ديوان شعر صغير، ورسائل عدتها ٢٣٣ رسالة، ومقامات مطبوعة .مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذانى، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، وتقديم شريف عفت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

ومثله أيضا قوله : (١)

أُحِبُّ البَديعَ الحُسنِ مَعنىً وَصورَةً وَشِعرِيَ في ذاكَ البَديعِ بَديعُ

ولعل قوله هذا يدل على موقفه من البديع، وأنه يستحسنه بشرطه وهو أن يكون المعنى هو الذى استدعاه وتطلبه.

ومن المصطلحات البلاغية أيضا مصطلح الترصيع فى قوله:(٢)

أَيُّها المُتحِفي بِنَظمٍ وَنَثرٍ كَلآلٍ قَد زانَها التَرصيعُ

ومصطلح الترصيع، مصطلح بلاغي يقصد به أحد ألوان البديع المعروفة(٣).

ومن الألفاظ التى تستعمل بكثرة فى علم البلاغة والنقد ، كلمات " التنميق " والتأنق" "والزخرفة" " والحسن اللفظى" " والعذوبة" " والسبك" "والدر" "والانتقاء" "والرونق"وتأمل تلك الصورة للقصيدة كما يتصورها البهاء زهير حيث يقول عن قصيدة المدح:(٤)

عَكَفنا عَلَيهِ نَجتَني مِن فنونِهِ فَعَلَّمَنا هَذا الكَلامَ المُؤَنَّقا
وَكَم شاعِرٍ وافى إِلَيكَ بِمَدحَةٍ فَزَخرَفَها مِمّا أَفَدتَ وَنَمَّقا
فَإِن حَسُنَت لَفظاً فَمِن رَوضِكَ اِجتَنى وَإِن عَذُبَت شَرباً فَمِن بَحرِكَ اِستَقى
فَلا زِلتَ مَمدوحاً بِكُلِّ مَقالَةٍ تُريكَ جَريراً عَبدَها وَالفَرَزدَقا
وَما حَسُنَت عِندي وَحَقِّكَ إِذ غَدَت هِيَ التِبرُ مَسبوكاً أَوِ الدُرُّ مُنتَقى
وَلا إِن جَرَت مَجرى النَسيمِ لَطافَةً وَلا إِن حَكَت زَهرَ الرِياضِ المُعَبِّقا
وَلَكِنَّها حازَت مِنِ اِسمِكَ أَحرُفاً كَسَتها جَمالاً في النُفوسِ وَرَونَقا

فهى قصيدة منتقاة، يحسن لفظها، ويعذب شربها، وهى كالتبر المسبوك، وألفاظها كالدر المنتقى، واسلوبها سلس يجرى مجرى النسيم لطافة تفوح ريحها برائحة الرياض ..

---

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٥٨.
(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص١٥٣.
(٣) "هذا النوع أعني الترصيع هو عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها وهو مأخوذ من مقابلة ترصيع العقد" ينظر: خزانة الأدب لابن حجة ، ٤٠٩/٢.
(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص١٧٩.

٧-الملل والنحل:

لعل من العلوم التى تأثر بها ابن سناء الملك علم الملل والنحل، وهو العلم الذى يعنى بتتبع الملل والنحل وبيان خصائصها وأوجه تطابقها مع الإسلام الحنيف أو اختلافها معه ويبحث فى فكر الفرق التى تظهر ومبادئها، وغير ذلك مما تختص به مثل هذه الدراسات ويبدو أن البهاء كان له اهتمام خاص بتتبع الفرق التى فى عصره ومعرفة أحوالهم ومن ذلك الصوفية ومذهب التصوف كما يظهر من قوله:(١)

عَلَيَّ لِذاكَ اليَومِ صَومٌ نَذَرتُهُ وَعِندي عَلى رَأيِ التَصَوُّفِ شُكرانُ

ومن ذلك ورود كلمة التسنن وهى نقيض التشيع، والخلاف بين السنة والشيعة يكاد يتمثل فى خلاف الأيوبيين والفاطميين، يقول البهاء:(٢)

فَلَعَمري يُريبُني فَرطُ هَذا التَسَنُّنِ

ومن ذلك عرضه لبعض عقائد الفرق الصوفية ، وما يعتقدونه فى مشايخهم، المشى على الماء، مثل الفرقة الرفاعية التى تظهر خصائصها فى قوله:(٣)

فَلَو صَدَقَ الحُبُّ الَّذي تَدَّعونَــهُ وَأَخلَصتُمُ فيهِ مَشَيتُم عَلى المــاءِ
وَإِن تــكُ أَنفاسي خَشيتُم لَهيبَها وَهالَتكُمُ نيرانُ وَجدٍ بِأَحشـــائي
فَكونوا رِفاعِيِّينَ في الحُبِّ مَرَّةً وَخوضوا لَظى نارٍ لِشَوقِيَ حَرّاءِ

وقد ألم أيضا بمعرفة المجوسية، وعرف عبادتهم وأظهرها فى صورة فنية حيث يقول:(٤)

إِذا أوقِدَت لِلحَربِ نارٌ أَوِ القِرى تَوَهَّمتَهُ مِن عِشقِها مُتَمَجِّسا

فالممدوح كريم، يحب الكرم ويحب مظاهره، ويجد لها طربا وأريحية، ولذا فهو يعشق النار التى هى إيقادها أحد أهم المظاهر التى تدل على الكرم، وهى صورة تراثية للكرم حيث

(١) السابق، ص٢٦٥.
(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص٢٨٠.
(٣) السابق، ص١٧.
(٤) السابق، ص ١٣٩.

كانالعرب يوقدون النار ليهتدى إليهم عابر السبيل والضال، والجائع وغيرهم ممن تعوزهم الحاجة إلى طعام أو ماء أو أنس؛ ولذكر النار وحب الشاعر لها؛ فقد اقتربت الصورة فكادت تعبر ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين حب الكريم للنار، وبين حب المجوسي لها ولذا كان الشاعر ذكيا حين استعمل اللفظ "توهمته" ولم يستعمل أداة من أدوات التشبيه فهو يريد أن ذلك الشبه إنما هو وهم.

وتقترب من هذه الصورة ، بل تتكرر الصورة نفسها فى قوله يمدح قوم ممدوحه: (١)

جُبِلوا عَلى الإِسلامِ إِلا أَنَّهُم فُتِنوا بِنارِ الحَربِ أَو نارِ القِرى

وبهذا يتبين لنا أن العلوم التى أثرت فى ابن سناء هى ذاتها العلوم التى أثرت فى البهاء ولكن الواضح أن ثقافة ابن سناء العلمية كانت أوسع، وأن توظيفها فى شعره كان أظهر وأوضح وواضح أيضا أن ابن سناء كان يتكلف ويتحيل أكثر من البهاء ليستعرض ثقافته ويدل بها، تمشيا مع ما اختاره لنفسه من الأسلوب وهو التصنيع كما سيأتى بعد بمشيئة الله.

المبحث الثانى، مهنة الكتابة وأثرها فى الصورة بين الشاعرين:

توطئة: بين الشعر والكتابة:

كان الشعر في عصوره الأولى فن العرب وعلمهم الأول، وكان أيضاً وسيلتهم في تقييد الأفكار، والتواريخ، والمشاعر، وكذلك كان هو المظهر لحضارتهم الكلامية، يستوعب عاداتهم وتقاليدهم حتى فى المأكل، والملبس،بل فى أدق شئون الحياة؛ مما يمثل ثقافة أمة حية.

وكان –إضافة إلى ذلك – وسيلتهم في التصوير لما يرون؛ إذ هم أمة أمية لا تعرف القلم فضلاً عن ريشة الرسام التي يستخدمها في التصوير؛ فريشة الرسام تحتاج إلى استقرار وإقامة وحياة العرب لا تعرف عن الحياة إلا أنها رحلة ، أو نية في الرحيل .

بل كان الشعر هو أداة الإعلام والإذاعة للمكارم، يصور أصحابها، ويذيع فضائلهم فمن نوه به الشعراء طار اسمه فى الآفاق، وقصة المحلق مع النابغة مشهورة، وغيرها كثير

(١) السابق، ص ٩٨.

ممن لعب الشعر فى حياتهم دورا يشبه دور الإعلام، والدعاية الإعلامية كمثل ما لعب فى حياة بني أنف الناقة، أو "نمير" قبيلة الراعى النميرى .فهو يقوم فى حياتهم مقام الصورة المتحركة التى يمثلها التلفاز فى عصورنا الحديثة .

لقد كان العرب ينقلون ثقافتهم ولوحاتهم وعلومهم وفكرهم في صدورهم عبر أبيات الشعر فيحلون ويرتحلون وكل ذلك معهم لا يكلفهم مئونة في الحمل ولا مشقة في الرحيل .

أما وقد توالت الفتوحات ،وعرف العرب الاستقرار، وأصبحت هذه اللغة عالمية دانية إلى كل متعلم ممن يرغب في معرفة ثقافة العرب والدين الإسلامى الجديد فقد احتاج الأمر إلى تعلم الكتابة وإشاعتها بين الناس لأن السلائق فسدت، وأصبح الحفظ والرواية تدخلهما ريبة فى أصحابهما لا سيما وقد ارتبط الأمر بالقرآن الكريم والحديث الشريف؛ فأصبحت الأمة الإسلامية تحتاج إلى وسيلة أكثر حرصا على المحفوظات الكريمة بما فيها شعر العرب وكلامهم، وأمثالهم، فكانت الكتابة، وكان الكتاب، وأصبحت أمة الإسلام-على مر الليالى وكر الأيام- كاتبة قارئة، وبمر العصور أيضاً أصبحت الكتابة هي الوسيلة الأولى في تقييد الفكر والتاريخ والمشاعر، فقيل: إن"الخط أفضل من اللفظ لأن اللفظ يفهم الحاضر فقط والخط يفهم الحاضر والغائب"(١)

فبالكتابة "ظهرت خاصة النوع الإنسانى من القوة إلى الفعل، وامتاز عن سائر أنواع الحيوان، وضبطت الأموال، وترتبت الأحوال، وحفظت العلوم في الأدوار، واستمرت على الأطوار، وانتقلت الأخبار من زمان إلى زمان نقلت من مكان إلى مكان"(٢).

أما عن زمن شاعرينا وهو القرن السابع الهجري فهو عصر الأيوبيين ودولتهم السنية، التي تحترم العقل، وتقدر العلم، وتعرف حق العالم والكاتب، اختارت هذه الدولة

(١) أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، بتحقيق د. يوسف على الطويل،دارافكر دمشق، ط أولى، ١٩٨٧، ج٣، ص٦ .
(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص٦.

صلاح الدين قائدا لها، فاختار صلاح الدين القاضي الفاضل وزيرا ومستشاراً وكاتباً، حتى أنه كان يقول :"ما نصرت بسيوفكم ولكني نصرت بقلم القاضي الفاضل"(١).

وأراد الله أن يتخذ القاضي الفاضل شاعرنا ابن سناء الملك نائباً عنه ومساعدا له، فالدولة تقوم على أركان ثلاثة الدين والسياسة والعلم. والكتابة عمل سياسي، لكن شرطه العلم ولذا فابن سناء الملك والقاضي الفاضل كانا رجلي سياسة، فضلاً عن كونهما عالمين، وكان القاضي الفاضل أبرز رجل سياسي في الدولة بعد أمراء بني أيوب، وهو صاحب مذهب في الكتابة والشعر، بل هو إمام الكتاب والشعراء، يحب كل منهم أن يقلده رغبة في الوصول إلى ما وصل إليه.

فكتاب العصر وسياسيّو؛ إذن هم أنفسهم شعراء هذا العصر، ولذا استلزم هذا الأمر أن يستجد على أساليب الشعر جديد، ويطرأ عليها طارئ، هو التأثر البيّن بقوانين الكتابة وعادات الكتاب، فلقد تفوقت الكتابة على الشعر تفوقاً كبيراً، مما أكسب الكتّاب عاداتٍ خلقيةً وتقاليد اجتماعيةً تحفظ لهم هيبتهم أمام الناس بوصفهم رجال سياسةٍ، كما أكسبهم عاداتٍ مهنيةً حرفيةً ترجع إلى صنعتهم؛ كالتزام الحذر والدقة فيما يكتبون؛ إذ عرفوا الطريق إلى التسويد والتبييض، والمحو والتغيير؛ لذا "كان الكتاب حينئذ يتبارون على اقتناء الفضيلة، ويترفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة ،ويجهدون في معرفة ما يحسن ألفاظهم، ويزين مكاتباتهم لينالوا بذلك أرفع رتبة ويفوزوا بأعظم منزلة."(٢)

وشرائط كثيرة ذكرت في الكتب التي تناولت الكاتب وما ينبغي له من الصفات والثقافات والعلوم التي يلم بها، مثل أدب الكاتب وصبح الأعشى، والمثل السائر، فالكتابة أصبحت هي المعول عليها في تقييد الصورة الذهنية؛ فالألفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه، ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه تصبح –" بالخط

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – الهند ١٩٥١ ج ٨،ص ٣٠٤
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص٨٠.

الذي يخطه القلم وتُقيّدُ به تلك الصورة، بعد أن كانت صورة معقولة باطنة- صورة محسوسة ظاهرة"(١)

أصبح الشعر فى هذا العصر فنا مكتوبا؛ لذا فقد تأثر بالكتابة؛ إذ الفنون الكتابية كالبشر، يقلد المغلوب منها الغالب، ويتأثر به، ويحاول أن يقلده، ويتطبع بطباعه، ويتزيا بثيابه، ولما وجد الشعر أن للكتابة قصب السبق فى هذا العصر؛ كان لا بد أن تنتقل خصائص الكتابة إلى الشعر، لتأخر دور العاطفة التي لم تمّح تماما، وليتقدم دور العقل الذي لم يصبح وحيدا في السيطرة على صنعة الشعر، ولذا؛ أصبحت الصورة الفنية فى القصيدة الشعرية صورة مصنوعة، يرسمها لسان القلم الجاف، لا يتحرك بها لسان إنسانى رطب.

ولن أكون مبالغا إذا قلت: إن فنون العمارة التى تطورت تطورا مذهلا منذ عهد الفاطميين، كان لها أثر هي الأخرى فى الصورة الفنية في الشعر؛ لأن الحياة الإنسانية كل متصل، لا تنفصل فيه بنية عن بنية، والفنون تتعاور ويتأثر ببعضها، "فالعمارة تعد أعم المجالات الفنية التى برع فيها المسلمون خلال العصور الإسلامية"(٢) والمؤثرات الفكرية التى يتأثر بها الفنان التشكيلي هى عينها التى يتأثر بها الفن الشعرى، وكل يعرض تأثره حسبما تمليه عليه طبيعة فنه؛ فقد أصبح الشاعر ينحت صورته نحتا كما ينحت الرسام والنقاش صورة أو آية قرآنية على محراب مسجد، أو يرسم رسما زخرفيا على جدار مبنى.

تداخلت فى الصورة -إذن – ألوان وخطوط وظلال؛ **ألوانٌ** مما يراه الشاعر فى حياته اليومية، وخطوطٌ من دراسته للقصيدة العربية ومعرفته بصنعتها، وظلالٌ من الماضى والحاضر تظلل صوره وفنه،وأصبحت الصورة الفنية فى الشعر متعددة الأبعاد، معقدة النسج، تلتقى فيها العلوم مع العواطف،مع الثقافة الشعبية السائدة، مع الموروث من صور

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص٨٢.

(٢) د. محمد على عبد الحفيظ، دراسات فى العمارة الإسلامية، ط٢ ٢٠٠٣، وفى الكتاب عرض مصحوب الصور لما كانت عليه العمارة فى أيام الأيوبيين من القلاع والأسوار والقصور مما أوحى للباحث بأن القصيدة كانت أحد الأبنية التى اهتم بها شعراؤهم بوصفها بناء يتسم بالقوة والتخطيط.

السابقين؛ فهل ندرك الفرق بين أن تكون الصورة الشعرية مقولة وبين أن تكون مكتوبة وهل ندرك الفرق بين أن يكون الشعر فنا قوليا، أداته اللسان، وبين أن يكون فنا كتابيا أداته القلم؟.

كان المصطلح الشائع – في وصف الإبداع الشعري- هو مصطلح قول الشعر أو قرضه أو ارتجاله والنطق به واللهج والهذيان، وكلها أوصاف راجعة إلى اللسان ودرجة إجادته للتحرك بالشعر، أما في هذا العصر فقد تحول المصطلح إلى "كتابة الشعر" وكأن فن الشعر أصبح خليطاً من نوعين أدبيين هما الكتابة والشعر، الكتابة بما هو معروف عنها من قواعدها وأسسها وطرائقها، والشعر بما هو معروف عنه من أوزان وموسيقا وقوافٍ وأسلوب خيالي، ولقد تقارب الفنّان في شعر العصر الأيوبي؛ نتيجة لأن الكتابة كانت الفن الأول وكان الشعر داخلاً في صنعة الكتابة، كما أشار إلى ذلك المنظرون لفن الكتابة كابن قتيبة وابن الأثير والقلقشندي.

فالأمر أصبح مسلما به وفضلت الكتابة الشعر عند بعض كتاب هذا العصر ومما يدل على هذا ما ساقه بعض المؤلفين من تفضيل لها عليه مثل ما حكاه ابن قتيبة فى أدب الكاتب والقلقشندي الذى عقد الفصل الثالث من كتابه صبح الأعشى لترجيح النثر على الشعر ورأى "أن النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة وأشرف مقاما وأحسن نظاما"(١).

يقول: "وناهيك بالنثر فضيلة؛ أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز، ونوره المبين الذي لا يأتيه الباطل، من بين يديه، ولا من خلفه، ولم ينزله على صفة نظم الشعر؛ بل نزهه عنه بقوله:" وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون "ويرى القلقشندى أن السبب فى هذا التفضيل هو: "أن مقاصد الشعر لا تخلو من الكذب، والتحويل على الأمور المستحيلة والصفات المجاوزة للحد، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المحصنات، وشهادة الزور

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٨٩.

وقول البهتان، وسب الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس؛ فكيف بالنبي ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله"(١).

ولخطر الكتابة الذى تكلمت عنه آنفا؛ فإن مصالح الأمة متعلقة بأقلام الكتاب وبهذه الميزة -أيضا- فضل الترسلُ الشعرَ عند القلقشندى؛ لذا نراه يقول:" والترسل مبنىٌ على مصالح الأمة، وقوام الرعية؛ لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك، وسراة الناس في مهمات الدين، وصلاح الحال، وبيعات الخلفاء، وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام، الذين هم أركان الدولة وقواعدها إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء، ولا يأخذها الحصر" ، وإن مما يرويه القلقشندى (إثباتا لمذهبه) فى تفضيل النثر على الشعر " أن النابغة الجعدي كان سيدا في قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وحط رتبته" (٢).

بل إن القلقشندى يذهب إلى أبعد من هذا حين يبطل حجة من زعم أن الشعر أرقى من النثر ويصف هذا الرأى بأنه اتباع للهوى يقول: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر اتباعا لهواه بدون دليل واضح، (قال في الصناعتين): ومع ذلك فإن أكمل صفات الخطيب والكاتب، أن يكونا شاعرين، كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا ، قال: والذي قصر بالشعر كثرته، وتعاطي كل أحد له حتى العامة والسفلة فلحقه بالنقص ما لحق الشطرنج حين تعاطاه كل أحد"(٣)

وصفات الكاتب التى لا بد أن يتحلى بها منها ما هو خاص بشخصية الكاتب ومنها ما هو خاص بفن الكتابة والآلات المستخدمة فيه من ثقافة واقتدار على ناصية اللغة والتمكن من نحوها وصرفها وبلاغتها والتميز فى أساليب التعبير التى تسهم فى القدرة على

---

(١) السابق، ج١، ص٩٠، ٩١.
(٢) السابق، ج١/٩١.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١/٩٢، وتنظر عبارة أبى هلال فى الصناعتين، بتحقيق على محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي، ط٢، ص ١٤٥.

الإقناع بالمكتوب وهذا ما حاول أن يثبته ابن قتيبة فى أذهان ووجدانات تلاميذه من الكتاب على مر العصور؛ فأعد لهم كتابه "أدب الكاتب" الذى حوى الكثير من الآداب التى ينبغى للكاتب أن يتحلى بها .

فمن الصفات الخاصة بشخصية الكاتب أنه لا بد له من همة النفس والأنفة وكد النظر وتعب الفكر يقول ابن قتيبة: " فإني رأيت كثيرا من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفو أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكر حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة ولعمري إن كان ذلك؛ فأين همة النفس وأين الأنفة من مجانسة البهائم"(١)

ولا بد له مع ذلك من معرفة شيء من النحو والإعراب فلا بد أن يعرف "الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئا من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك "(٢) كما أن الثقافة بالعلوم الرياضية أمر هام بالنسبة للكاتب فـ" لا بد له مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات .... ,...ومن لم يكن عالما بإجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم المهاوي ومجاري الأيام في الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر في استهلاله وأفعاله وزن الموازين وذرع المثلث والمربع المختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه ودقائق الحساب كان ناقصا في حال كتابته"(٣) ... ولا بد له مع ذلك من النظر في جمل الفقه ومعرفة أصوله من حديث رسول الله وصحابته"(٤) ولا بد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس،وتحفظ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطوره؛ متمثلا إذا كتب، ويصل بها

(١) ابن قتيبة،أدب الكاتب،بتحقيق محيي الدين محمد عبد الحميد، المكتبة التجارية، ١٩٦٣ط ٤ ج١،ص٦.
(٢) السابق، ج١، ص١٠.
(٣) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ج١، ص ١١.
(٤) السابق، ج١، ص ١١.

كلامه إذا حاور، ومدار الأمر على القطب، وهو العقل وجودة القريحة ... ونحن نستحب لمن قبل عنا، وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب -قبل مجانبته اللحن وخطل القول- شنيع الكلام ورفث المزح ". (١)

ونستحب له أن يدع في كلامه التقعير والتقعيب.....، نستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكتاب والمكتوب إليه وأن لا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام. (٢)

المطلب الأول، مظاهر الكتابة فى صور ابن سناء الملك:

رأيت كيف كان البناء العقلي والعلمي الذي ينبغي أن يكون الكاتب عليه، ومن ثم فلا مناص من أن تتأثر الصورة وهى-هدف الشعر- بالكتابة لما قدمنا؛ إذا كان الشاعر كاتبا؛ ولذا كان من أهم سمات الصورة فى هذا العصر: الانتقاء والترتيب والتنميق وموافقة العقل وعدم سيطرة العاطفة عليه، وأدى هذا كله إلى أن ظهرت فى العصر الأيوبي مدرسة شعرية، تسمى مدرسة الكتاب، تميزت هذه المدرسة بمعالم وملامح أدبية، ظهرت بوضوح فى ممثلى هذه المدرسة، ومنهم شاعرنا، وقد لخص الباحث محمد إبراهيم نصر معالم مدرسة الكتاب هذه قوله:

"لقد كان شعراء هذه المدرسة يخضعون للاتجاهات الفنية التى يخضع لها الكتاب وكان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شيء، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع، وكانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعبا يظهر فيه أثر الصناعة والتكلف، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية، ومراعاة نظير إلى غير ذلك من ألوان البديع والبيان ومن أنصار

(١) السابق، ج١، ص ١٣.
(٢) السابق، ج١، ص ١٧.

هذه المدرسة القاضى الموفق وابن الخلال والأسعد بن مماتى ... على أنهم التقوا مع مدرسة الرقة والسهولة ومعهم ابن سناء الملك. والواقع أن ابن سناء الملك كان تلميذا للقاضى الفاضل كما أسلفنا يسترشد بآرائه ويعنى بنقده وكان يعنيه أن يستجيد شعره .. والقاضى الفاضل كما نعلم هو زعيم مدرسة الكتاب فى العصر الأيوبي إن لم يكن مؤسسها ولذا نرى أن ابن سناء الملك قد تأثر به تأثرا كبيرا وإن كانت له شخصيته والشعراء الآخرون الذين تأثر بهم وعدهم أساتذة له كابن المعتز وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك بقى أن نشير إلى أن ابن سناء الملك كان يحاول التجديد والابتكار وإن دفعه ذلك إلى نزعة عقلية ابتعدت به أحيانا عن رياض الشعر المونقة فابن سناء إذن ينزع منزع مدرسة الكتاب وإن تعلق بآثار الأقدمين فاقتدى بهم فى كثير من صورهم وتفكيرهم "(١)

وللكتابة فى شعر ابن سناء الملك مظهران: **أما أحدهما فخفى لا سبيل إلى إدراكه إدراكا علميا يقوم على التحديد** وهو أخلاقيات الكتاب التى كان ابن سناء الملك يأخذ نفسه بها أو إن صح التعبير أخلاق النبلاء من الأثرياء الذين لهم فى الدولة خطر وشأن.

وأما الآخر فهو المظهر المحسوس الذي يمكن تحديده وإقامة الدليل عليه ثم إقامته دليلا على تأثير صنعة الكتابة على الصورة الفنية فى الشعر عند ابن سناء الملك وهذا ما يمكن أن نصل إليه من خلال بعض الظواهر التالية:

١- ظهور الرموز الكتابية:

الكاتب صانع والكتابة صنعة، أدواتها: القلم والطرس والحبر، ونتاجها كلمات مكتوبة مصطفة على أسطر، كل كلمة هي فى ذاتها كيان مركب من أصوات، يرمز لها بحروف هي رسوم متجاورة، نحب -فى الخط- شكلها المجرد بغض النظر عن دلالتها ومعانيها، بيد أنها قد تدل بأشكالها ورموزها على معانيها.

(١) محمد إبراهيم نصر، ابن سناء الملك حياته وشعره، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧،ص١٦٨.

" فالمعاني لها في الوجود أربعة مواضع الأول وجودها في أنفسها والثاني وجودها في أفهام المتصورين لها، والثالث وجودها في الألفاظ التي تدل عليها والرابع وجودها في الخط الذي هو أشكال تلك الألفاظ المعبر عنها" (١)

وإذا تأملنا الرابع من هذه الأقسام عرفنا أن الحرف العربي بشكله وهيئته أصبح يكتنز نوعاً من المعنى وأنه قد عرف الطريق إلى التجريد ،إذ أصبح ذا جمال في ذاته ،مستقلاً عن كونه معبراً عن معنى بانضمامه إلى غيره في كلمة واحدة أو كلام كثير؛مما أدى إلى ظهور علم متكامل له قواعده وأسسه وأصوله، ومنهجه، هو علم الخط العربى.

وعلم الخط العربي هذا، يعد واحداً من أهم العلوم التي يجب أن يثقفها الكاتب ،إذ يتعرف فيه على كل ما من شأنه أن ينتج له خطاً جميلاً من كيفية سن الأقلام، ومعرفة المدبب من المستطيل من المبرود منها وكيفية التعامل مع هذه الأقلام: كيف يمسكها وكيف يجعل الخط مرة رفيعاً وأخرى سميكاً، وتارة صغيراً، وتارة أخرى كبيراً.

ولقد سبق أن عرفنا أن ابن سناء الملك كان يعمل كاتباً ،عاش جلّ عمره بين الأقلام والدفاتر، والحروف، يؤلفها، ويكتبها ويتأملها ويحملها من مشاعره ما أمكنه أن يحملها ولم يكن عهده بالحروف جديداً فلقد كان أبوه مثله، وكان هو يرى في الكتابة سر حياته ،وسعادته،حيث ارتبطت سعادته بالقاضي الفاضل زعيم الكتاب في عصره؛ فهو الذي رفعه وقربه وأدناه من السلطة ،فلا غرو أن يحب الكتابة والكتاب .

ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن الرجل كان يتعامل مع رموز الحروف حتى استحالت هذه الرموز أشخاصاً قابلة لأن تأتي أطرافاً في صوره الفنية.

فحرف النون الذي هو نصف دائرة مقوس طرفاه إلى أعلى وفي داخله نقطة، يشبه خصلة الشعر النازلة على صدغ المرأة ذات الوجه الأبيض ،إذ على خدها خالٌ تحتضنه تلك الخصلة ،كاحتضان النون لنقطتها يقول ابن سناء: (٢)

عضة لي من تحت نون بصدغ منك أضحت كأنهـا تنـوين

(١) مجدي أحمد توفيق، مفهوم الإبداع الفني في النقد العربي القديم ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٣ ص ٣١١ نقلاً عن سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٣٣.

أرأيت كيف تحولت الصورة من وجه الحسناء وخصلة الشعر ونقطة الخال إلى حرف النون ،على ورقة بيضاء ، بل إن الكتابة لتمتلك على الرجل أقطار نفسه وتأخذ بتلابيب خياله ،فيرى حتى القبلة التي بالغ وسمّاها عضة تنوينا .. حيث تركت تلك العضة أثراً على خدها تحت الخصلة المشار إليها ،فإذا بها تشبه التنوين ،فكأن الخصلة من الشعر على خدها وهي تحتضن الخال، ومن تحتها تلك العضة، كأنها نون مكسورة أسفلها تنوين.

وحرف النون من الحروف التي لها وقع خاص على قلب ابن سناء فتلك الصورة المشار إليها سابقاً تتكرر لكن مع إضافة ملمح كتابي جديد هو "المشق" يقول: (١)

وما اكتفت بكتب نـــ (م) ـــون الصدغ حتى مشقت

"والمشق في الكتابة مد حروفها، أي أنها حسنت نون الصدغ ومدت فيها"(٢) ولتلك الخاصية لحرف النون ولشبهه السابق، عشق النونات؛ بل قبّلها في كل كلمة تصادفه فيها تلك "النون" حتى لقد قبل نون "المنون" مبالغة في عشقه للنون،لما أشبه من حبيبته: (٣)

أَقْبل النوناتِ من أَجْلِه حتى لقد قَبَّلت نُونَ المَنُونْ

ويقول في صورة أخرى: (٤)

فرقت باللثم نون الصدغ أو رجعت نونين منه وكان الصدغ كالنون

وتتأيد مكانة النون في قلبه، من كونها اسماً لسورة قرآنية عظيمة؛ فهو عندما يبكي على واحدٍ ممن رثاهم من العلماء، فإن أولى سور القرآن مشاركة له في البكاء عليه هي سورة "نون" ثم سورة "صاد"؛ أرأيت إلى الحروف كيف تبلغ لديه مبلغ الأشخاص حتى يسند إليها البكاء؟ أرأيت كيف يجعلها أول مشارك له في البكاء على المراثي؟ (٥)

وقد بكت سور القرآن فاســتمعوا شهيق نونٍ بسمع القلب أو صـــاد

---

(١) السابق، ص ٣٦٨.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٦٩ هامش ٢٢.
(٣) السابق، ص ٤٥٣.
(٤) السابق، ص ٤٥٥.
(٥) السابق، ص ٥٠٥.

لقد أصبحت الحروف وأشكالها تمثل الطبيعة التي يحيا فيها ابن سناء الملك، فلا غرابة أن استدعاها لمشاركته الحزن، على عادة الشعراء فى استدعاء مفردات الطبيعة من حولهم وإشراكهم إياها فى أحوالهم الوجدانية، كما فعلت الشاعرة الجاهلية(١)؛ إذ أشركت شجر الخابور معها فى الحزن، وعاتبته عتاب الصديق "على أنه زها وأورق، فى حين أنه كان ينبغى أن يلبس الحداد على ابن طريف"(٢).

وكما فعل طرفة بن العبد إذ أمضى همه بناقته إذ يقول(٣):

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ... بهوجاءَ مرقالٍ تروح وتغتدى

وكما فعل امرؤ القيس إذ سلى عن نفسه الهم بناقته(٤):

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرةٍ ... ذمولٍ إذا صام النهار وهجرا

غير أن شاعرنا مدنى متحضر، لم تعد الناقة والفرس والشجرة هى كل بيئته؛ بل أضيفت الأقلام والطروس والحروف إلى مفردات الطبيعة، وصارت أكثر التصاقا به وبصنعة الشعر لديه، فحرف النون دائما ملاصق للصدغ حتى لقد أصبح ردفه، وصنوه الذى يذكر كلما ذكر ويشبه به كلما طلب الشاعر للصدغ شبها:(٥)

ونون صدغ زادنى جنة ... وربما يعذر فيه الجنون

إن الحروف وأشكالها تمثل وسواسا لا ينى يهتف فى أذنه ساعة كتابة الشعر، بل رئيا يترءى له كلما أراد شبها أو طلب تصويرا، وإلا فانظر إلى وجه حبيبته كيف يتحول إلى مجموعة من رموز الكتابة:(٦)

---

(١) الشاعرة هى: ليلى بنت طريف، وقيل الفارعة بنت طريف، وعنيت قصيدتها التى جاء فيها قولها:
أيا شجر الخابور مالك مورقا... كأنك لم تجزع على ابن طريف
وقد روى ابن خلكان القصيدة كاملة فى ترجمته للمرثى بالقصيدة وهو الوليد بن طريف، شرح ديوان الحماسة، للمرزوقى، ج٣/ ١٠٩٢، هامش٢.

(٢) د. عبد الحليم حفنى، المراثى الشعبية (العديد) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص ٢٦٤.

(٣) الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار مصر للطباعة ص٣٨ ، ود.حسن عبد السلام، الموت فى الشعر الجاهلى.

(٤) امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف بالقاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٣٣

(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤٢٣.

(٦) السابق، ص ٢٧٨.

فباء عذار فوقه سين طـــرة إلى ميم ثغر فهو أوله بســـم

ثم قل لى بربك، ألا تشكل الكتابة، وعالمها وجدان هذا الشاعر، وترتسم بجزئياتها على صورة الفنية ؟ ثم إننا لو تعاملنا بنظرة موضوعية مع هذه الصور، لأدركنا وجه الجمال فيها، وحكايتها لحال صاحبها وبيئته التى نشأ فيها ومرد عليها، إذًا لشاركنا الشاعر ما يحس به وفهمنا عنه ما يريد أن يوحى به إلينا، بدلا من أن نحكم عليه بالبرود والجفاف.

الوجه أول ما يرى من الإنسان، وهو العنوان على صاحبه وهو أكرم عضو فى الجسد حتى أن كبراء القوم يسمون وجوها ووجهاء، والذى يقابل ذلك فى الصحائف المكتوبة هو البسملة، والبسملة جمالها المعنوى وأثرها فى القلوب آت من قول الحبيب صلى الله عليه وسلم :" كل عمل ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" فوجه الحبيبة وما يحدثه من الأثر فى القلب شبيه بالبسملة وما يحدثه البدء بها من راحة للعين والقلب، فانظروا شعر كيف ارتبط وجه حبيبته بشبيه "كتابي " له قدسيته وحرمته وتأمل العفة فى التشبيه ، وتأمل كذلك رغبة الشاعر فى دوام الصلة وعدم انقطاعها إذ وجهها "بسملة" باقي جسمها ؛ بل "بسملة" علاقته بها. ثم اسأل نفسك ألا ينمّ هذا عن بيئة الشاعر التى يعيشها ويتأثر بها ؟ أقصد بيئة الكتابة.

نعم " فكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون؛ مال به إلى ذلك الفن، وغلبت عليه قواعده، واستعملها فى مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن، وأحكامه"(١).

وعندما يريد الشاعر الكاتب أن يصور أثر الحب على نفسه فإنه يشبه حاله بحال من مسه طائف من جنون يقول: (٢)

ومسنى مس بمن ثغـــره فى فمه الألعس ميم وســـين

(١) صلاح الدين الصفدى، الغيث المسجم فى شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ج١ ص٢٠٤.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٣٢٥.

فهو تحت تأثير خدر الكتابة ، يلتمس لهذا المس أسبابا تتعلق بكلمة " مس " وتكوينها الشكلى ، إذ هى "م " و"س " أما الميم فقد ساعدت فى جلب المس لأنها تشبه مرشف حبيبه فى استدارته،ودقة تكوينه، وأما السين فقد أتمت المس لأنها تشبه أسنانها فى استوائها ودقتها.

فأنت تراه وقد حول الصورة، واتجه بها من طرفها "البشري"، إلى طرف آخر "كتابي" بل جعلها "صورة كتابية" ، وما كان ذلك ليكون لولا تأمله الدائم لأشكال الحروف،وإحساسه تجاهها بأحاسيس تختلف عن أحاسيس غيره بها، ولقد أزعم، أن الشاعر كان ذا خط جميل يكتب الحروف أولا، ثم يحاول أن يجد لها شبها فى الطبيعة من أعضاء الإنسان، ثم تواتيه الفكرة معكوسة حين يريد لأعضاء الإنسان شبها ساعة كتابة الشعر فيذكر ما كان شبهها به من قبل من الحروف " فتسمية أعضاء الإنسان بالحروف شيء أكثر الشعراء منه فشبهوا الحاجب بالنون، والعين بالعين، والصدغ بالواو، والفم بالميم والصاد، والثنايا بالسين، والقامة بالألف، والطرة بالشين"(١).

وأظن أن الصفدى فى هذا النص السابق يقصد الشعراء الذين اتخذوا الكتابة صنعة وحرفة مثل شاعرنا، وغيره كالقاضى الفاضل والعماد الأصبهانى، وغيرهم من الشعراء الكتاب، أو الكتاب الشعراء إن شئت الدقة فى التعبير.

والعلة فى ذلك ظاهرة فصنعة الكتابة كان أحد شرائطها حسن الخط ، والسرعة فى كتابته ، وما أظن حسن الخط يتأتى للموهوب إلا إذا صقله تأمل ومداومة على التنميق فيه والتحسين والتزيين ، كما أشار إلى ذلك القلقشندى إذ اشترط فى الكاتب أن " يكون حسن الخط أو بالغا فيه القدر الكافي"(٢). وكذلك "أن يكون سريع اليد فى الكتابة حسن الخط"(٣) وأشار إلى أن بلوغ الشأو فى الكتابة لا يدركه" إلا العالم الحاذق بهندسة الخط

(١) صلاح الدين الصفدي، الغيث المسجم، ج١ ص ١٢٨ .
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١ ص ١٦٧.
(٣) السابق.

مع ما يكون من الأناة وحسن التأدية "[١]؛ إذ كان لهم فى الإمساك بالقلم صنعة لفت إليها من اشتهروا بالخط الحسن كالوزير ابن مقلة الذى روى عنه القلقشندى قوله " ويكون الإمساك بالقلم فويق الفتحة بمقدار عرض شعيرتين أو ثلاث وتكون أطراف الأصابع متساوية حول القلم لا تفضل إحداهن على الأخرى"[٢].

وربما يزيل العجب إذا عرفنا أن القلقشندى قد لفت إلى جمال الخط وذكره فى كتابه صبح الأعشى فى ما يربو على مائتي موضع وأشار إلى مؤلفات ألفت فى الخط قال:"وصاحبنا الشيخ شعبان بن محمد بن داود الآثارى محتسب مصر، ونظم فى صنعة الخط ألفية وسماها(العناية الربانية فى الطريقة الشعبانية) لم يسبق إلى مثلها"[٣].

وإذا أدركنا ذلك سهل علينا تصور أن بعض الرموز الكتابية كرمز الـ"مـ" يصير له بسبب معايشة الشاعر له، ميزة أو مقدار أو درجة فى الحب يفضل بها غيره، فهو شبيه بالفم دائما والفم أو الثغر عضو فى المرأة له خصوصية فى علاقة الشاعر بلوحة وجه حبيبته وصورتها ولذا فقد ورد رمز الميم عنده بكثرة فى غزله خاصة، من مثل قوله: [٤]

فم كميم وفيه سين مبتسم واضيعة العقل بين الميم والسين

وقوله : [٥]

وشعره لثغره ميم بدت حار ابن مقلة عند تلك السين

وقوله [٦]

قل لحبيبي إننى صاد إلى ميم فمه

وقوله : [٧]

---

(١) السابق، ج٣، ص٤٣.
(٢) السابق.
(٣) السابق، ج٣، ص ٢٠ .
(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٤٥٥.
(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤٦٥.
(٦) السابق، ص٤٤٧.
(٧) السابق، ص٤٤٥.

مـا فمـه مـيم ولكنـه علامـة الجـزم علـى المـيم

وهو هنا يبالغ فى دقة هذا الفم واستدارته، حتى أن استدارة الميم تبدو أكبر منه فيحاول-مبالغة فى التصوير- أن يجد شبها أصغر من الميم ، فلا يجد إلا علامة الجزم، وهى رأس الميم الصغيرة التى ترسم على الحرف المجزوم.

وكما ظهرت الميم فى الغزل ظهرت فى الرثاء عنده ، فى قوله (١)

وفـؤاد مـا بـين هـاء ومـيم لم يكفـا عنـه بمـيم وهـاء

فالهم الذى يتردد فيه قلبه ليس يزجر بكلمة الزجر " مه " وما الهم إلا جماع الهاء والميم ، وما الزجر إلا جماع الميم والهاء ، وذلك قد يبدو متكلفا شديد التكلف بالنسبة لرجل يعيش بعيدا عن جو الكتابة ، وما تمليه من التنميق ،والتحسين والاختبار والانتقاء،وإدراك علاقات حميمة بين الحروف وأشكالها وبين ما تدل عليه من المعانى.

أما بالنسبة لشاعرنا فالأمر مختلف ، بل قد يبدو الأمر غريبا لو جاء على العكس فلقد كنا سنتساءل: أين صنعته الكتابية؟ ألم تؤثر فيه؟ أين حياته؟ أين بيئته؟ لا سيما وأصحاب فقه اللغة يقررون أن لكل طائفة من البشر تعمل فى مجال بعينه مجموعة من الاصطلاحات تظهر فى تعبيراتهم شاءوا أم أبوا.

٢- ظهور لوازم الكتابة:

ليست الحروف الهجائية وصورها وأشكالها فقط هي التي تمثل أثر مهنة الكتابة على التصوير الفني لدى ابن سناء الملك ولكن هناك أموراً أخرى بدت على صورة وهي لوازم الكتابة واصطلاحاتها من مثل الرسم والمحو في قوله: (٢)

وحميت رسم الدين من أن يمّحـي ومنعت نور الشرع من أن ينطفـي

ومن مثل الخط في قوله: (٣)

إنما الطرس منك روض نضـير والمعاني في الخط درّ نضـيد

(١) السابق، ص٤٩١.
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٠٢.
(٣) السابق، ص٨٥.

فانظر كيف تكون الصحيفة التي يكتب عليها ممدوحه -وهو "كاتب"- رياضاً نضيراً لجمال ما ينقش عليها، وانظر إلى المعاني كيف تصير درراً منضداً منضماً بعضه إلى بعض في السطر الذي يمثل السلك الجامع لهذه الدرر؛ ثم أنظر إلى المجانسة بين نضير،ونضيد ،والتكميل بهما لما ختماه من معاني الشطرين.

وكما رأينا الخط "وجماله، نرى كلمة تدل على التنميق والمبالغة في التحسين هي كلمة النمنمة في قوله: (١)

تذَهَّبَ خدٌّ فيه خطٌّ مُنمنمٌ فهل أَبصرَت عيناكَ ثوباً مُمَزَّجا

ويبدو لي أن هذا تغزل بمذكر إذ النمنمة هذه تدل على شعيرات اللحية كما أنه يصف حبيبه هذا فيما بعد "بالمعمم"(٢) وهي صفة للذكر. وذلك مبني على تشبيه ضمني للخد بالطرس أو الصحيفة التي يكتب عليها، يدعمه قوله فى موطن آخر:(٣)

وفي خـــط مســـك لاح في طـــرس وجنـــة لهـا البـدر يعـزي والبنفسـج ينتمـي

والكتابة من ظواهرها أيضاً الرقم أو هو من أسمائها وهو إذ يتغزل يرى الحسن كتاباً، وخدّ الحبيب رقما على صفحات كتاب الحسن واضحاً:(٤)

قـرأت كتـاب الحسـن في خـط خـده ألم تـرَ في خـده واضـح الـرقم

وكذلك يعد شاعرنا الكتابة نقشاً متأثراً بفنون العمارة إذ كان من المعماريين من ينقش الكتاب فوق جدران المساجد لذا فالكاتب نقاش بقلمه العجيب:(٥)

وعجيب إذا خط بالنقش لفظاً هو من جوهر وفي لون جزع

---

(١) السابق، ص ٥٢.
(٢) السابق، ص ٢٨٢.
(٣) السابق، ص ٢٨١.
(٤) السابق، ص ٢٢٧٨.
(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٩٤ ، وينظر ص ٨٢ البيت رقم ٢٦ .

ومن أثر مهنة الكتابة وظواهرها ومعايشته لها ولأصحابها ذكر أسماء الكتاب خاصة من امتازوا بالخط الحسن مثل الوزير ابن مقلة(١) الذي أصبح رمزاً ومثلاً يضرب في جمال الخط، فالقد الذي كان من قبل يشبه بالغصن ،أصبح اليوم يشبه بحرف الألف الممشوق وليس أي ألف بل ألف ابن مقلة بالتحديد ،فهي ألف لا ككل الألفات:(٢)

ألف ابن مقلة في الكتاب كقده والصدغ مثل الواو في التحسين

وهو إذا أراد أن يفضل أحداً في الكتابة والخط ويبالغ في تفضيله فليس أمامه إلا أن يرفعه عن ابن مقلة ،كما فى تلك الصورة:(٣)

وأكتَبُ من خط الوزير ابن مقلة خطوط لهاتيك الذوائب في الترب

فهو يريد هنا أن يبالغ في طول شعر حبيبته ،وأن هذا الشعر لطوله يبلغ الأرض ويكتب على الترب، والحق أنها صورة غير جميلة أراد أن يمدح حبيبته فذمها بها ، إذ الطول إلى هذه الدرجة مذموم حتى في ذيول الخيل، فعندما مدح امرؤ القيس فرسه قال:(٤)-

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

فهو فويق الأرض لا يصلها بل يقاربها، أما ابن سناء وحبيبته آدمية من بنات حواء يصفها بذلك الوصف القبيح، وهذا على أية حال يدل على تأثر الشاعر بالكتابة وإن أخفق فى إجادة الصورة؛ ومن ظواهر عملية الكتابة ولوازمها الخدش، والسطر ،في قوله(٥)

وخدش على خط العذار كأنه كلام على سطر من الخط ملحق

---

(١) هو الوزير الكاتب أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة، من وزراء الدولة العباسية وزر للخلفاء غير مرة، اشتهر بجودة خطه قال القلقشندى "... قلت ثم انتهت جودة الخط وتحريره على رأس الثلثمائة إلى الوزير أبي علي محمد بن مقلة وأخيه أبي عبد الله، قال صاحب إعانة المنشئ: وولدا طريقة اخترعاها وكتب في زمانهما جماعة فلم يقاربوهما وتفرد أبو عبد الله بالنسخ والوزير أبو علي بالدرج وكان الكمال في ذلك للوزير وهو الذي هندس الحروف وأجاد تحريرها وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها" ولد سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وتوفى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، قال صاحب الوفيات: "وفيها توفي الوزير بن مقلة الكاتب صاحب الخط المشهور وقد ثم قطعت يده ولسانه وسجن حتى هلك وله ستون سنة". ينظر: صبح الأعشى:٣/ ١٨، ١٩، الوفيات ١١٣/٥ ، شذرات الذهب، ٣١٠/١، المستطرف فى كل فن مستظرف، ٢٧٣/١.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤٦٥.

(٣) السابق، ص٣٦١.

(٤) امرؤ القيس، ديوانه، (المعلقة).

(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤١٩.

ومن لوازم الكتابة ما يحدث من النسخ، والتبييض، والتسويد، كما في قوله:(١)

نسخة الحسن فوق خديك أبهـــى منظراً من تبيضها التسويد

والتصحيف يلح على ابن سناء بوصفه كاتبا(٢) والتصحيف أن يخطئ الناقل أو الناسخ فيكتب حرفاً يؤدي إلى خطأ في القراءة مثل أن يصحف الغدر فيكتبها عذر يقول ابن سناء:(٣)

وهممتُ بالعذرِ الَّذي تصحيفُه فيه وما كُلُّ الوَفاءِ يَليقُ

والعذر للحبيب وفاء من ابن سناء ،والحبيب فيه غدر، وهو ما قصده ابن سناء وذلك من أثر الكتابة عليه:(٤)

هذا هو الغـــدْرُ الذي مَا فيهِ تَصْحِـــيفٌ لعـــذر

٣- ظهور أدوات الكتابة:

ومن مظاهر تأثير الكتابة فى صور ابن سناء الملك، ظهور الأدوات الكتابية مثل القلم والطرس والصحائف والدواة والحبر؛ والقلم هو سيد أدوات الكتابة أقسم الله تعالى به، فقال عز اسمه " نون والقلم وما يسطرون "(٥) وذكره الله تعالى كأداة للتعليم فقال تعالى" علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم "(٦) ؛ فللقلم فى الذاكرة العربية والإسلامية مكانة عظمى ، وله بين أدوات الكتابة مكانة أعظم.

والقلم هو ألصق أدوات الكتابة بصاحبه فهو ملازم ليده؛ بل امتداد طبيعي لهذه اليد يشعر بما تشعر به؛ فيسكب ما تستمده من القلب والضمير على الورق، ولذا فظهوره كثير فى شعر ابن سناء الملك، يذكره أكثر من اثنتين وعشرين مرة فى صور مختلفة، وذلك كما فى قوله: (٧)

---

(١) السابق، ص١٩٩.
(٢) التصحيف هو: " كل تغيير فى الكلام ينشأ من تشابه صور الخط" ينظر: تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، ط٥، مكتبة السنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م، ص٦٤.
(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٢٠٦.
(٤) السابق، ص٥٨٥.
(٥) سورة نون الآية:١.
(٦) سورة العلق الآيتان: ٤،٥.
(٧) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٢٦٦.

فى كفه قلم يجرى أوامـــره بالبأس والجود أو بالعيش والأجل

فالقلم هنا لخطره يشبه القدر لأنه به تخط مصائر الناس والأوامر التي تقضي لهم بالنفع أو عليهم بالضرر ويتكرر هذا المعنى في قوله:(١)

فى كفه قلم إن شئت أو قـــدر يصرف الخلق بين النفع والضرر

كما أن القلم يجلو الطروس ويجلى الظلمات ويرفع الظلم كما فى قوله: (٢)

إذا امتطى القلم العالى أناملـــه جلا الطروس وجلى الظلم والظلمـــا

والقلم كالسيف يكتب الحجة الدامغة التى تفحم العدو فتعمل فيه عمل السيف فيكون به حمام العدو كما في قول ابن سناء الملك: (٣)

وبكفه القلـــم الـــذى يسقى العداة حمامهـــا

وللقلم أسماء مختلفة منها القلم كما سبق ومنها اليراع فى قوله:(٤)

ولم يدر إن أجرى اليراع بطرســـه أيكتب فيه السطر أو ينظم العقـــدا

وقد يؤنث اليراع فيسميه "يراعة" كما فى قوله:(٥)

وإذا جرد اليراعة فى الكـــف م علمنا أن السيوف غمـــود

ومن أدوات الكتابة التى تكثر في صور ابن سناء الملك الطرس، وهو مقترن بالقلم إذ لا وجود لأثر القلم إلا عليه؛ فهما متلازمان، وكما أقسم الله تعالى بالقلم ، أقسم أيضا بالطرس (وإن كان بغير لفظه) فقال تعالى "وكتاب مسطور، فى رق منشور"(٦) وذكر تعالى الرق المنشور، والألواح، والنسخة، ومن هنا جاءت أهمية الأدوات الكتابية واحترام الكتاب لها وتصويرها صورا تدل على مكانة هذه الأدوات.

---

(١) السابق، ص١٥٦ .
(٢) السابق، ص ٢٧٦ .
(٣) السابق، ص ٢٨٨ .
(٤) السابق، ص٨٨ .
(٥) السابق، ص ٨٥.
(٦) سورة الطور، الآيتان: ٢، ٣ .

وقد تعددت صور الطرس لدى ابن سناء الملك فمرة ترد بالإفراد ومرة بالجمع ومرة ترد بلفظ الصحف وأخرى بلفظ الطروس فمن الجمع قوله:(١)

منه الطروس خدود والسطور بهـا مثل السوالف والطرات كـالطرر

فالطروس تشبه الخدود والسطور المنقوشة عليها تشبه سوالف الشعر التي تتدلى على الخدود وأما "الطرات" -وأظنه يقصد بها نواصى الصفحات وحدودها من أعلى فهى تشبه الطرة التى تتدلى على الجبهة؛ وقد يأتى به مجموعاً فى قوله:(٢)

له قلم جائل فـى الطـروس فتحسبه أرقما نضنضـا

والطروس في هذه الصورة شبيهة بالأرض المنبسطة التى يسير عليها هذا الثعبان الأرقم الذى شبه به الثعبان فى الصورة؛ ومن استعمال الطرس مفرداً قوله:(٣)

محرابه الطرس فـالعقول لـه ساجدة إن رأته قد سـجدا

فأنت تراه فى هذه الصورة مغاير للصورة السابقة إذ جعله الشاعر محراب يصلى فيه القلم الساجد الذى تسجد العقول لحلاوة ما يكتب؛ ومن الصور الطريفة للطرس قوله:(٤)

وبكفه القلم الذى هو فـارس فى الطرس حيث الطرس كالميـدان

فهو ميدان يصول القلم فيه ويجول إذ القلم فى هذه الصورة فارس هذا الميدان، وقد يذكر الشاعر الطرس بلفظ "الصحائف" كما فى قوله:(٥)

إذا ما كتبنا مدحة أشرقت به الصـ ـصحائف لا بل كاد يبيض حبـره

وقد يذكر بلفظ "القرطاس" قوله:(٦)

ينمنم فى القرطاس خطا موشـعا له ثمـر كـدنا نقـوم لقطفـه

---

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص١٥٦ .
(٢) السابق، ص١٨٧ .
(٣) السابق، ص ١١٦ .
(٤) السابق، ص ٣٣٨ .
(٥) السابق، ص ١٦٧ .
(٦) السابق، ص١٩٩.

ومن أدوات الكتابة التى وردت فى صور ابن سناء الملك "الدواة"، وقد وردت لديه مرة واحدة فى قوله:(١)

ولولاه كنت نبــذت الــدواة ولولاه كنت كسرت القلــم

وهى أقل أدوات الكتابة ذكرا لديه وذلك لأنها أبعدها التصاقا بكفه ، وهذا يؤيد لدى أن الشاعر يصور ارتباط مشاعره بهذه الأمور، وأنه ينقل بيئته ، ولا يعيش بعيدا عنها فهو يستعين على التصوير بما لديه من مفردات فى بيئته ويرشح منها ما يقترب من قلبه ويده ، وما يشعر أنه دانٍ إلى نفسه .

ومثل "الدواة " "الحبر" وهو من أدوات الكتابة ولكن ذكره لا يتعدى المرتين لديه فى قوله:(٢)

إذا ما كتبنا مدحه أشرقت به الصــــ ــصحائف لا بل كاد يبيض حبــره

وقوله:(٣)

وما نزهت عيني على وشْي حبره ولكنَّها قد نُزهَتْ في حبيره

ومن خلال المبحث السابق يمكن القول: إن الصورة الفنية عند ابن سناء الملك تأثرت بالكتابة بوصفها حرفة احترفها الشاعر، حتى غدت رافداً مهماً من روافد الصورة فى شعره، وجعلت له أسلوباً فى التعبير يغاير أساليب التعبير الانفعالية، وقد ظهر أثر الكتابة فى الصور الفنية فى شعره ظهورا بينا كما سبق أن عرضنا له من خلال الظواهر التى سبقت الإشارة إليها.

المطلب الثانى، مظاهر الكتابة فى صور البهاء زهير:

كما كان للعمل بالكتابة تأثير على ابن سناء الملك، كان له تأثير أيضا على البهاء زهير، فقد "اشتغل الشاعر(البهاء) كاتباً لبنى اللمطي(٤) فترة من الزمن قد تربو على

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص٣١٦ .
(٢) السابق، ص١٦٧ .
(٣) السابق، ص٥٨٥ .
(٤) بنى اللمطى هم حكام قوص التى كان يحيا بها الشاعر فى الشطر الأول من حياته، وقد مدح الشاعر أمراءهم.

خمسة عشر عاماً عنّ له بعدها -وقد طمح به الأمل إلى أفاق أوسع وأرحب- أن يؤم السلطان ويطرق بابه بالقاهرة لعله أن يفتح له أبواب المجد والشهرة ومن ثم الغنى والعيش الرغد"(١)

"وهكذا تبع البهاء زهير نجمه والتحق بالقاهرة لخدمة الملك المسعود بن الكامل ثم بالصالح نجم الدين قبل توليه السلطة ولكنه اختص بالصالح وظل معه إلى أن تولى الملك بعد أبيه الكامل وتولى ديوان الإنشاء وظل عليه فلقب بالصاحب وكانت مرتبته تقرب إلى الوزارة وظل يحظى بتقدير الصالح ورعايته إلى قبيل وفاته"(٢).

ولكن ثقافة الكتابة، بوصفها أعرافا وتقاليد-يأخذ بها الكاتب نفسه، مما رأيناه عند ابن سناء الملك كانت- تختلف عند البهاء زهير؛ حيث إنه لم يكن فى طباعه وشخصيته كابن سناء الملك، الذى دعاه الثراء إلى أن يحب التأنق فى كل شيء، ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن التصنيع والتأنق كانا دأبه فى لباسه وطعامه وشرابه، وكلامه وجميع أمره، أما البهاء فلم يشأ منذ البداية أن يحبس نفسه فى سجن التقاليد الكتابية سواء فى الحياة أو فى الفن الشعري، ولم يرد أن يطوق قلمه بأغلال التصنيع؛ بل فضل أن يظل قلمه حرا، وأن يترك شعره يهيم كيف شاء فى ما تختار له عاطفته، ومشاعره.

ولكن مع ذلك لم يخل شعره من مظاهر تعكس ثقافته الكتابية، كظهور الألفاظ التى تتعلق بالكتابة، أو ظهور أسماء الحروف والتورية بها، أو ظهور أسماء بعض أدوات الكتابة ولعل أهم هذه المظاهر هى تصويره للمكاتيب الإخوانية أو الغزلية أو ما يرسل به ممدوحه له من عتاب أو غير ذلك.

١- ظهور لوازم الكتابة:

(١) د.محمد زغلول سلام،الأدب فى العصر الأيوبي،الجزء الثانى ط٢ منشأة المعارف بالإسكندرية١٩٩٧م ص ٢٨٣.
(٢) السابق، ص٢٨٤.

ومن لوازم الكتابة "الكتاب" وأقرب معنى للكتاب إلى ذهن البهاء، وطبيعته: أن يقصد به "المكتوب الغرامي" المرسل له من حبيبته أو صديقه ، أو بمعنى آخر الكتاب الذى يحمل العواطف والمشاعر، لا الذى يحمل إقطاعا أو أمرا بتقليد وظيفة جديدة أو ترقية من رتبة سياسية إلى رتبة، مما يهم العاملين فى الدواوين من مدرسة الكتاب أمثال ابن سناء الملك، فقد كان اهتمام البهاء بـ"الكتاب" يتمثل فى هذا النوع من المكاتيب الغرامية فظهر عنده لفظ الكتاب يحمل هذا المضمون وقد وجدت فى ديوانه مقطوعات كاملة يصور فيها المكتوب وأثره فى نفسه من مثل قوله: (١)

وافى كِتابُكَ وَهوَ بالـــ أَشواقِ عَنّي يُعرِبُ
قَلبـــي لَدَيـــكَ أَظُنُّـــهُ يُملي عَلَيكَ وَتَكتُبُ

فالصورة متأثرة بثقافة الكتاب، دائرة فى فلكها؛ فموضوع القصيدة هنا "كتاب صديقه" وهو كتاب يعرب عن الشوق، فكأنه قلب الشاعر الذى امتلأ بالأشواق إلى صديقه بل لكأن قلبه هو الذى كان يملى هذا الكلام على يد صديقه الكاتبة، فتأمل لفظ "يملي" و"تكتب" فهما يصوران تأثر الشاعر بهذا الجو حيث الكاتب جالس والأمير يملى عليه الذى يكتبه.

وتأمل قوله يصور رسالة مكتوبة، ولكنها مكتوبة بتعجل، مما يوقفك على حال الكاتب وأنه قد يعتريه القلق فيكتب فى سرعة وقد يمهله الوقت فيكتب على مهل، لكن رسالة شاعرنا كانت مكتوبة فى سرعة ، فتأمل كيف صور حاله ساعة الكتابة يقول: (٢)

كـــتَبتَها مِن عَجَـــلٍ بِدَهشَـــتي وَقَلَقـــي
فَاِعجَب لَها مَنظومَـــةً مِن خـــاطِرٍ مُفَـــرَّقِ
كـــأَنَّنـــي كَـــتَبتُـــها مُرتَعِـــشاً مِن زَلَـــقِ
فَاِضطَرَبَت أَجزاؤُهـــا جـــميعُها في نَسَـــقِ
ثـــلاثَـــةٌ تَشابَهـــت خَطّي مِـــدادي وَرَقي

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص، ٢٠.
(٢) السابق، ص ١٨٩.

فَخَطَّها كَأَنَّهُ ... مَشِيُ ضِعافِ العَلَق
مِدادُها كَحَمأَةٍ ... مَسنونَةٍ في الطُرُق
وَرَقُها أَبيَضُ لَكِن ... كَبَياضِ البَهَق
لَكِنَّها شاهِدَةٌ ... بِعَدَمِ التَمَلُّق
وَلَم أَكُن أَخدَعُكُم ... بِباطِلٍ مُنَمَّق
بِظاهِرٍ مُزَوَّق ... وَباطِنٍ مُمَزَّق

إن الشاعر فى هذه المقطوعة يرسم لنا صورة الكاتب أثناء الكتابة ، ويستعمل مفردات الكتاب من الورق، والمداد، والخط، وما يمكن أن يظهر من أثر القلق على الخط.

ومما يعد من لوازم الكتابة ما ورد هذه الصورة التى يتحدث فيها البهاء زهير عن الكتاب الذى جاءه من سيده أو حبيبه أو صديقه كثيرة مما يدل على تأصل ثقافة الكتابة وعمق أثرها فى نفسيته، وذلك مثل قوله: (١)

أَتَتني مِن سَيِّدي رُقعَةٌ ... فَقَلتَ الزُلالَ وَقَلتَ الضَرب
وَرُحتُ لِرَسمِ اِسمِهِ لاثِماً ... كَأَنّي لَثَمتُ اللَمى وَالشَنَب
فَيا حَبَّذا غُرَرُ أَبياتِها ... وَما أودِعَت مِن فُنونِ الأَدَب
فَأَودَعتُها في صَميمِ الفُؤا ... دِ وَلَم أَرضَ تَسطيرَها بِالذَهَب

فتأمل ألفاظ " رقعة، رسم اسمه، تسطيرها" تجد أن الكتابة وظواهرها عميقة الأثر فى البهاء ولعل قوله "رقعة" يدل على نوعية المكتوب عليه وأنه من الجلد أو القماش وليس من الورق.

ومن مثل ذلك قوله: (٢)

أَكِتابٌ مِن فاضِلٍ ... قالَ قَولاً فَأَسهَبا
أَم أَزاهيرُ رَوضَةٍ ... فَتَّقَتها يَدُ الصَبا
قُلتُ لَمّا رَأَيتُهُ ... مَرحَباً ثُمَّ مَرحَبا
ثُمَّ لَمّا قَرَأتُهُ ... هَزَّ عِطفي تَطَرُّبا
وَتَوَهَّمتُ أَنَّهُ ... رَدَّ لي رَيِّقَ الصِبا

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص، ٣٣.
(٢) السابق، ص ٣٤.

إنه يشبه الكتاب بالأزهير، التى فتقتها يد ريح الصبا، فأظهرت جمالها، ثم يتخيل حروف الكتاب أشخاصا فيستقبلهم بالترحاب قائلا أهلا ومرحبا، ثم يبين أثر الكتاب عليه وكيف هز عطفه طربا لما قرأه .. والواضح أن الطبيعة عنده هى المشبه به أى هى الأساس وأدوات الكتابة هى المشبه أو هى التالية فى الإدراك، وهو فى هذه الطريقة من التصوير يغاير ابن سناء الملك الذى تمثل مفردات الكتابة وأدواتها بيئته الأصلية.

واستحضار الروض، والطيب فى مقام تصوير الكتاب كثير عند البهاء من مثل قوله:(١)

كِتــابٌ أَتــاني مِن حَبيبٍ وَبَينَنا ... لِطــولِ التَنــائي بَرزَخٌ أَيُّ بَرزَخِ
تَقــدَّمَ لــي عَنهُ مِن البُعدِ أُنسُه ... وَفاحَ إِلَيَّ الطيبُ مِن رَأسِ فَرسَخِ
كَأَنَّ نَسيمَ الرَوضِ عِندَ قــُدومِهِ ... سَرى بِقَميصٍ بِالعَبيرِ المُضَمَّــخِ
لَقــَد بانَ مِن تاريخِــهِ في هِزَّةٌ ... فَقُــل في كِتابٍ بِالسُرورِ مُؤَرَّخِ

ولعل فى البيت الأخير ما يوضح عادة كتابية هى عادة تأريخ الكتاب، أى وضع تاريخ اليوم والشهر والسنة، ولعل ذلك من أثر اهتمامهم بالزمن وقيمته ، مما علمتهم حضارتهم.

والكتاب فى البعد هو الذى يشرح حال الشاعر، ويوقف أحبابه على حاله، وما هو فيه من الشوق كما يقول:(٢)

هَــذا كِتــابي وَهُــوَ يُــط ... لعُكُم عَلى حالي وَضَــرّي
فَتَــأَمَّلوا فيــهِ تــرَوا ... أَثَرَ الــدُموعِ بِكُــلِّ سَــطرِ
مــاءٌ تَــدَفَّقَ مِــن جُفُــو ... نِي فَهوَ مِن نارٍ بِصَــدري
كَــالعودِ يوقَــدُ بَعضُــهُ ... وَالبَعضُ مِنهُ المـاءُ يَجــري

ولعلك تلاحظ دقة التشبيه وروعته، وجدته وطرافته فى البيت الأخير، فالعود عندما يحترق تجد النار ممسكة ببعضه بينما يعتصر حرها الماء من بعضه الآخر، تمهيدا

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٦٧.
(٢) السابق، ص ١٠٧.

لتجفيفه حتى تأكله النار، وتلك صورة طريفة جديدة، تدل على تأمل الشاعر فى الطبيعة من حوله، وله دلالة أخرى هى أن الكتابة وثقافتها لم تلفت الشاعر عن الطبيعة.

ومن تصويره للكتاب تصوير نظامه من ذكر التسمية فى أوله كما شبه يوم حضور الممدوح فى ايام الزمان بأنه يأخذ الصدارة كالتسمية فى الكتاب: (١)

يَومٌ يُسَطَّرُ في الكِتابِ مَكانُهُ كَمَكانِ بِسمِ اللهِ في خَتَماتِهِ

ولعل المثل القائل "الجواب يبين من عنوانه" هو ما قصده الشاعر بقوله: (٢)

أَيُّها الغافِلُ ما تُبـ ـصِرُ عُنوانَ الصَحيفَة

وأظنه يقصد الشيب وأنه عنوان الموت، أو الحياة وكونها عنوان الآخرة ، أو دلائل الفناء فى الدنيا من حيث إنها دلائل على وجود الحياة الخالدة بعد البعث، ولكنه عبر أو صور ما يريد بما التفت إليه فى بيئته الكتابية.

ومن لوازم الكتابة وتأثره ببيئة الكتاب ذكر "الإملاء" فى قوله: (٣)

فَعِدنِيَ يَوماً نَجتَمِع فيهِ ساعَةً لأُملِيَ مِن شَوقي إِلَيكَ الَّذي أُملي

فالإملاء إنما يكون للكتابة، والصورة هنا تظهر الشوق هو المادة التى يمليها الشاعر وأظن أن الورقة المكتوب فيها متخيلة فى قلب حبيبه الذى يمليه، وكأنى هنا بقلبين أحدهما يملى والآخر يكتب ما يملى عليه.

وشاعرنا كاتب يضع مهارته الكتابية فى مقابلة الكتائب، ولكنه فى غزله المتهالك يصور كتبه أضعف من منازلة الكتائب ، كما فى قوله: (٤)

مُمَنَّعَةٍ بِالخَيلِ وَالقَومِ وَالقَنا وَتَضعُفُ كُتبي عَن زِحامِ الكَتائِبِ

(١) السابق، ص ٤٣.
(٢) السابق، ص ١٧٠.
(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢١٠.
(٤) السابق، ص ٢٩.

وهذا أمر يغاير ما وجدناه عند ابن سناء إذ الكتب عنده دائما أقوى من الكتائب وأشد منها سطوة، ويرجع هذا التغاير إلى أن الطبيعة الغزلية أقوى فى البهاء منها فى ابن سناء، وأن إدراك البعد النفعى فى التجربة الشعرية أقوى عند ابن سناء الملك.

ومن لوازم الكتابة ذكر الخط والحرف كما فى قوله:(١)

أَغارُ عَلى حَرفٍ يَكونُ مِن اِسمِها إذا ما رَأَتهُ العَينُ في خَطِّ كاتِبِ

فالكتابة ولوازمها تتسلل إليه فى أحوال الحب والشوق والغيرة، وربما يكون ظهور مثل هذه الصورة فى مقام كمقام الغزل عند البهاء مما يدل على أن ذلك تأثير غير متصنع.

٢- ظهور الرموز الكتابية:

رأينا عند ابن سناء الملك الكثير من الحروف كالواو، والنون والألف، والعين، وغيرها وقد ظهرت بعض الحروف فى بعض صور البهاء زهير مما يدل على اشتراكه مع مدرسة الكتاب فى تصور أشكال الحروف وتأملها وظهورها فى صوره الفنية من مثل قوله:(٢)

مَمشوقَةُ القَدِّ لَها صُدغٌ كَنونٍ مُشِقَت

فالخصلة من الشعر حين تلتوى على الخد محتوية فى وسطها خالا أسود كالنقطة تشبه حرف النون الذى يتقوس حاضنا نقطته، ولكن قد لا توجد النقطة، وعندئذ تشبه هذا الخصلة حرف الواو كما يتصورها البهاء فى قوله:(٣)

لِلَّـهِ أَيُّ قَـلَـمٍ لَواوِ ذاكَ الصَدغِ خَط

وَيا لَهُ مِن عَجَبٍ فـي خَـدِّهِ كَيفَ نَقَط

٣- ظهور أدوات الكتابة:

قلنا من قبل إن القلم هو ألصق الأدوات الكتابية بيد الكتاب، ولذا يكثر ذكره عند الشعراء الكتاب ومثلنا لذلك بصور كثيرة عند ابن سناء الملك، لكن الأمر مختلف عند البهاء زهير الذى قل جدا أن يذكر القلم كما فى البيت الأول من البيتين السابقين وكقوله:(٤)

---

(١) السابق، ص ٢٩.
(٢) السابق، ص ٤٢.
(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٥٠.
(٤) السابق، ص ٢٥٤.

وَإِن نَفَثَت في الطِرسِ مِنهُ يَراعُهُ رَأَيتَ عَصى موسى غَدَت وَهيَ ثُعبانُ

وكما يذكر القلم واليراعة يذكر الطرس والصحيفة، والمداد كما فى قوله: (١)

يَحكي بَياضُ الطِرسِ لي مِنها بَياضَ الوَجنَتَينِ

وَأَتــى سَــوادُ مِــدادِها يَحكي سَوادَ المُقلَتَينِ

وقد يذكر عادات الكتاب كالتحبير، والتبييض والتسويد كما فى قوله: (٢)

تَكادُ إِذا حَبَّرتُ مِنها صَحيفَةً لِذِكراكَ أَن تَبيَضَّ مِنها سُطورُها

وقوله: (٣) وَسَمِعتُ عَنكِ قَضِيَّةً قَد سُوِّدَت فيها الدَفاتِر

فمظاهر الكتابة وأدواتها كانت قليلة الظهور فى صور البهاء، إذا ما قيست بمظاهرها عند ابن سناء الملك الذى بدت عنده الكتابة ومظاهرها وأدواتها بوفرة، ولعل ذلك راجع إلى أن هناك نوعا من المدح وهو "مديح الكتاب" لم يقترب منه البهاء إلا مرة واحدة فى مدحه للوزير الصاحب الكاتب ابن شكر؛ بينما كان هذا النوع من المدح أصلاً وأساسا قام عليه مدح ابن سناء الملك لارتباطه بالقاضى الفاضل الذى مدحه بنيف وثلاثين قصيدة، فى مقابلة قصيدة واحدة فى هذا النوع عند البهاء زهير.

فلم تؤثر الكتابة على البهاء بوصفها مهنة يظهر أثرها على المشتغل بها سلوكا وإبداعا، ولم تكن رافدا مهما من روافد ثقافته، بل إن تعلقه بها كان كتعلق أى أحد يعرف قدرا ضئيلا من ثقافة الكتاب، ويدل على هذا قلة ظهور الصور المتأثرة بالكتابة إذا قورنت بما عند ابن سناء الملك؛ وذلك كله راجع أيضا إلى الثراء عند ابن سناء الملك، والفقر عند البهاء لا سيما فى بداية حياته.

فثراء ابن سناء الملك وتفرغه أتاحا له التأمل فى أشكال الحروف، وما يشبهها فى دنيا الواقع، بينما فقر البهاء وحاجته شغلاه عن تلك الأمور الدقيقة، إذ لم يكن لديه وقت

(١) السابق، ص ٢٧٨.
(٢) السابق، ص ٩٧.
(٣) السابق، ص ١٣٠.

يتأمل فيه الدقائق العقلية، التى لا يكون لها قيمة مع الحاجة إلى لقمة العيش، ولعل ظهور الصور الكتابية السابقة التى عرضت لها عند البهاء كان فى فترات متأخرة بعد أن بدأت أوضاعه المالية فى الاستقرار فى صحبة الملك الكامل.

وراجع أيضا إلى النشأة التى نشأها ابن سناء الملك حيث ولد ونشأ وتربى فى حجر الكاتب الكبير الوزير القاضى الفاضل، وقبل ذلك فى حجر أبيه الذى كان أيضا يعمل بالكتابة، وهو فى هذه الناحية يختلف عن البهاء الذى لا تدل ترجماته ولا يدل شعره على وجود صلة بين أبيه وبين الكتابة بل ولا العلم.

فالبهاء زهير عصامى كون ثقافته بجهد فردى ولذا تأخر فى التحصيل المعرفى والعلمى أشواطا عن ابن سناء الملك، ولكن موهبته الشعرية القوية وتعبيره الصادق عن عواطفه هو الذى كفل لشعره الوجود فى زمن كان البقاء فيه للأصلح بمقاييس ذلك الزمن.

فنوعية الممدوح، والطبيعة الشخصية، والنشأة، والثراء، والتفرغ، أدت إلى ظهور ثقافة الكتابة بمظاهرها المتعددة بشكل كبير عند ابن سناء الملك، وقلة ظهورها نسبيا عند البهاء زهير.

ولعل هذه الروافد التى تأثر بها كل من الشاعرين كان لها ظهورها البين فى موضوعات الصورة التى عنيا برسمها، وهذا يتطلب أن نستعرض موضوع الصورة فى قصيدة المدح، وهو ما سيتناوله الفصل القادم، وسوف يدور الحديث حول نموذجين للمدح هما الكرم والشجاعة بوصفهما الأشهر والأكثر ترددا فى لوحات المديح العربي لنرى كيف عالج كل من الشاعرين هذين النموذجين.